327

HARLEQUIN

روايات أحلام

حب . . وخط أحمر !

جاكلين بيرد

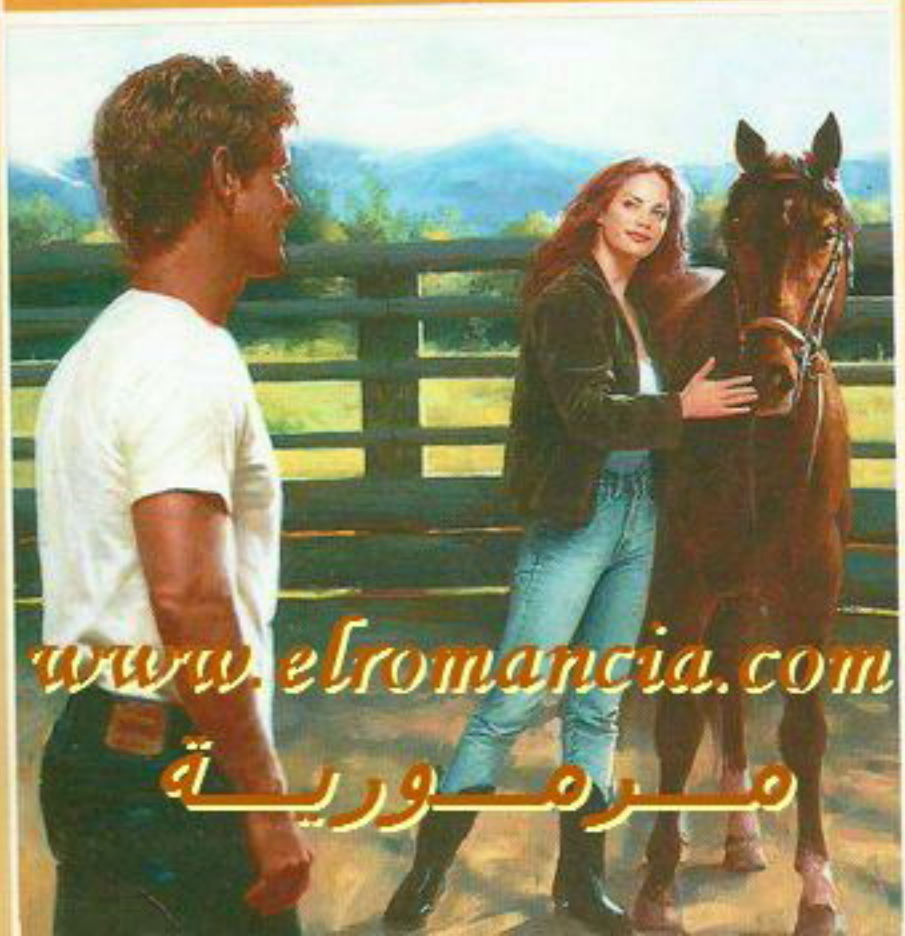

www.elromancia.com
مرمورية

حب.. وخط أحمر!

- أريدك أن تكوني زوجتي.

قال هذا ببساطة كما لو أنه يسألها عن الوقت. ونظرت إليه ذاهلة، "أنت تمزح أو ربما جننت!".

- لا بل منطقي. أبي مريض ولن يعيش طويلاً. وأشهره الأخيرة ستكون أسهل كثيراً إذا تزوجت.

- ولكن لماذا أنا بالذات؟

كان هذا شيئاً غير مفهوم. كان خافيار رجلاً من النوع الذي يمكنه أن يحصل على أي امرأة يريدها. وليس بحاجة إلى أن يبتز امرأة لكي تتزوجه.

- أريد ترتيباً مفيداً دون أي ارتباط عاطفي. امرأة تدفىء حياتي. دون أي تظاهر بأنها تدفىء قلبي. وما أعرفه عنك. يجعلك مرشحة مثالية لهذا الدور.

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-203-9

١ ـ ظل من الماضي

ـ الفتى في الرابعة والعشرين من عمره فقط ولا يزال صغيراً على الزواج، إنه ابنك وبإمكانك أن تقنعيه بالعدول عن هذه الفكرة.

قال خافيار هذا وهو ينظر متهكماً إلى أخته تيريزا التي كانت مستلقية على الأريكة. فهو واثق أن أخته الكبرى قادرة تماماً على السيطرة على ابنها، إذا شاءت، كما سيطرت عليه هو عندما ماتت أمهما وكان في الثامنة من عمره. فقد كانت تكبره بعشر سنوات.

استلمت دور الأم، فكانت أكثر صرامة من أمه التي فقدها. وبقدر ما كان يحبها، تنفس الصعداء حين وقعت في غرام دايفيد إيستربي وهي في الرابعة والعشرين. وكان الرجل الإنكليزي قد زار مزرعة الدواجن التي يملكونها، والتي تبعد عدة أميال شرق «سيفيل» لكي يشتري حصاناً إسبانياً أندلسياً أصيلاً لاصطحابه إلى «يوركشاير».

لقد تزوجا منذ ذلك الحين، كما أخذ خافيار يفكر، متأملاً في الخمسة والعشرين عاماً التي مضت عليهما، ولم ينجبا أثناءها سوى ولداً واحداً يريد الآن أن يتزوج. أما السبب في زيارته للمزرعة فهو حضور حفلة عشاء على شرف الخطيبين، في فندق ريفي قريب. لقد رتبت هذه الحفلة لتعارف الأسرتين، وكان خافيار ضيفاً على الرغم منه...

وقاطعت تيريزا أفكاره: «المشكلة معك هي أنك لم تعرف الحب قط».

فقال ساخراً ببطء: «لكنني كنت متزوجاً، ويمكنني أن أؤكد لك يا تيريزا أن قلة من الناس في هذا العالم يعيشون حياة منسجمة كالتي بينك وبين

دايفيد».

ـ هراء. أنت مجرد رجل ساخر لا رجاء فيه. وعلى كل حال، إنه قرار جيمي. وأنا ودايفيد نسانده من دون شروط. سيكونان هنا في أي لحظة، ولهذا أرجوك أن تحتفظ بآرائك لنفسك، وحاول أن تكون مهذباً مع خطيبته ووالديها.

ـ هذا عدا عن ابنة عمتها العانس.

قال هذا رافعاً حاجبيه بسخرية. وكانت الحيرة قد تملكته منذ وصوله، قبل ثلاث ساعات، حين علم أن الدعوة إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع في المزرعة لم تقتصر على الخطيبة ووالديها فقط، وإنما هناك أيضاً ابنة عمتها: «حذار يا تيريزا، إذا كانت لديك أي نية في التقريب بيني وبين تلك السيدة... الأفضل أن تنسي ذلك!».

ـ وكأنني سأجرؤ على ذلك!

قالت هذا بمكر وهي تنظر إلى قامته التي تبلغ أكثر من ست أقدام وأربع إنشات، وتقارنها بقامتها هي التي تبدو عادية للغاية. يبدو خافيار رجلاً منيعاً من كل النواحي، فهو ثري مسيطر وذو وجه وسيم للغاية. أما شعره فأسود كالليل وعيناه كستنائيتان. أثناء فتوّته كانت النساء تتهافت عليه، وكان هو يستغلهن تماماً. ولكن خلال السنوات القليلة الماضية، أصبحت نظراته باردة صلبة وهو نادراً ما يبتسم.

أضافت تيريزا وفي عينيها لمحة عطف: «لا أظن أحداً يجرؤ على أن يعترضك الآن، خافيار، في أي شأن كان».

أجفل لهذا العطف غير المرغوب فيه في وجه أخته، ورمقها بنظرة حانقة ثم استدار يجتاز غرفة الجلوس الأنيقة المريحة. وعلى كل حال، إذا كان ابن أخته يريد أن يتزوج في مثل هذه السن الفتية فهذا ليس من شأنه. وقف أمام النافذة وأخذ ينظر إلى الطريق المبلط بالحصى، وإلى الحديقة العامة خلفه من دون أن يرى شيئاً في الحقيقة. راحت أفكاره تدور حول أبيه دون بابلو أورتيغا فالدزبينو البالغ من العمر التاسعة والسبعين، وقلبه الضعيف الذي

يمنعه من المجيء إلى إنكلترا، ما جعله يصر على إنابته عنه في حفلة الخطبة هذه.

نادراً ما كان خافيار وأبوه يتفقان على شيء، وخطوبة جيمي الوشيكة لم تكن مستثناة. لم يوافق خافيار على الحضور إلا عندما أخذ أبوه يعنفه لعدم إنجابه أولاداً يحملون اسم العائلة، عند ذلك فقط وافق على أن ينوب عن أبيه في هذه العطلة الأسبوعية. فهو يكره الحفلات المنزلية إلا تلك التي يقيمها هو في بيته مع قليل من أصدقائه المختارين بعناية.

في الواقع، لقد مضت عدة سنوات منذ أن أمضى عطلة أسبوعية خارج إسبانيا لسبب لا يتعلق بالعمل. ورأى خافيار أن الوقت حان لكي يواجه حقيقة أنه أصبح مرهقاً. فالعمل هو كل حياته، مع أنه يقوم من حين إلى آخر بزيارة صديقته. وعندما عاد بفكره إلى الماضي، وجد أن خمسة أشهر مضت منذ آخر زيارة منه لها...

انتبه إلى صوت وصول سيارة، فنظر باهتمام ليرى سيارتين قادمتين نحو المنزل، عرف منهما سيارة جيمي الفخمة، فهو الذي اشتراها له كهدية في عيد ميلاده الواحد والعشرين. لكن السيارة الثانية هي التي جذبت انتباهه.

إنها سيارة سباق كلاسيكية من طراز «جاغوار ـ إي» يعود طرازها إلى ستينات القرن الماضي. غطاء محرك السيارة المفرط الطول والأناقة لا يدع مجالاً للشك في ذلك.

لم يكن ثمة عيب في هيكل السيارة الأخضر اللون الذي يتألق في شمس العصر. هذه الأناقة أضفت عليها بهجة خاصة، وكان خافيار يعشق السيارات.

قفز ابن اخته جيمي من السيارة الأولى وفتح بابها الخلفي، فنزل منها زوجان في منتصف العمر، ألقى خافيار عليهما نظرة قصيرة، وكذلك على الفتاة السمراء الجميلة التي سارت إلى جانب جيمي. لا شك أنها العروس المقبلة. لكن السيارة الثانية هي التي أثارت اهتمامه. قد لا تكون هذه

العطلة الأسبوعية مجرّدة من التسلية، رغم كل شيء. إذ بشيء من الحظ يمكنه أن يتحدث لبعض الوقت عن السيارات مع متحمسة حقيقية لها. صاحبة السيارة «الجاغوار ـ إي» تهدف إلى الحصول على قلبه كما يبدو.

أجفل خافيار، والتهبت عيناه اللتان تبدوان باردتين في العادة، بضوء متألق عندما نزل السائق ومسح بقعة من الغبار تكاد لا تُرى عن مقدمة السيارة.

كان السائق امرأة، وأي امرأة!

طويلة القامة والساقين، ذات شعر طويل مسرح إلى الخلف، ومربوط بوشاح حريري أحمر.

استدارت نحو صندوق السيارة فرأى خافيار أن خصلات الشعر تصل حتى منتصف ظهرها. تصاعدت الأصوات في جوّ الربيع المنعش البرودة، فقطب خافيار حاجبيه البنيتين الداكنتين بعبوس متوعد.

ـ من أين جئت بهذه السيارة المحطمة العتيقة، روز؟ إنها تشكل عبئاً على البيئة.

ألقى جيمي هذا السؤال لكن الهزل كان يتراقص في عينيه، فيما ذراعه تلتف حول خصر خطيبته، ما خفف من لهجته اللاذعة.

صفقت سائقة السيارة غطاء الصندوق، وحملت حقيبة ملابسها في يدها ثم نظرت إلى الخطيبين: «حذار!... كل من يهين «برترام» يهينني! إنها حب حياتي. وهي جديرة بالثقة أكثر من أي رجل».

تألقت العينان الخضراوان هزلاً، واتسعت الشفتان المليتان بابتسامة كبيرة، فيما تقدمت المرأة المذهلة نحو الخطيبين الفتيين: «ولمعلوماتك الخاصة، جيمي، جاءتني هذه السيارة من أبي، ولطالما كانت مصدر متعته وزهوه. وربما تساوي مرتين ما يساويه هذا الغول الذي تقوده أنت».

ـ الحق معها، فهي كلاسيكية. وما زالت مرغوبة.

وسكت الرجل ذو الشعر الأشيب والتفت إلى المرأة: «يا لها من مصادفة أن نلتقي في الطريق بهذا الشكل... أرجو أنك لا تقودينها بسرعة

بالغة، يا عزيزتي روزالين».

ـ نعم، يا لها من مصادفة! لقد عرفت سيارة جيمي خارج ريتشموند بالضبط. ولكن لو تعلم كم تملكني السرور حين التقيت هذين الإثنين في المطار الأسبوع الماضي. وأطمئنك خالي أليكس، أنني لم أتجاوز قط حدود السرعة طوال الطريق إلى هنا.

وضحكت.

لم يسمع خافيار الحديث، فقد اجتاحته موجة ساخنة لرؤيته جمال هذه المرأة. وهتف بصوت خافت: «يا إلهي!».

لم يسبق أن تملكته مثل هذه المشاعر القوية نحو امرأة منذ أكثر من عشر سنوات. صدمه هذا لكنه لم يدهشه. فقد كان يفكر لتوه أنه لم يزر صديقته منذ وقت طويل!

تراجع خطوة إلى الوراء فأخفته الستائر جزئياً. أخذ يراقب، وقد تصلبت كتفاه العريضتان، وضاقت عيناه الداكنتان وهو ينظر إلى تلك المرأة الضاحكة الحمراء الشعر. وفي تلك اللحظة قرر أمراً هاماً: ستصبح هذه المرأة له!

التهبت عيناه بتحدٍّ شيطاني وشعر بحيوية لم يعرفها منذ سنوات. هذه العطلة الأسبوعية تعده بأشياء وأشياء لن ينساها أبداً. وأقسم أن هذه المرأة الضاحكة لن تنساها هي أيضاً. وشعر برغبة في أن يضرب ابن أخته لا لشيء إلا لأنها ابتسمت له.

رأى عينيها تنظران إلى أعلى. لقد أصبح مصيرها محتوماً لكن لم يحن الأوان بعد... إنه بحاجة إلى أن يضع خطة. وفي تلك اللحظة أخذت يداه ترتجفان، وكأنه عاد إلى طور المراهقة.

استدار إلى الخلف: «وصل ضيوفك، تيريزا. أنا ذاهب لأتمشى قليلاً، سأقابلهم أثناء العشاء».

قال ذلك من دون أن يبدو أي اضطراب على وجهه الصلب الملامح. ومن دون أن ينتظر جواباً، اجتاز الغرفة بخطوات واسعة ثم خرج إلى

المستنبت الزجاجي الملحق بها ومنه إلى حديقة البيت الجانبية.

* * *

رفعت روز بصرها إلى المنزل وابتسامة تلوح على شفتيها. بدا المنزل ودوداً مرحباً بقرميده الأحمر والنوافذ البارزة الجميلة المحاطة بنباتات متسلقة، تتخللها أزهار الياسمين الصغيرة. يبدو أن العطلة الأسبوعية ستكون حسنة. وسوّت الطقم الكشمير الذي ترتديه، وشدّدت قبضتها على الحقيبة وهي تتقدم إلى الأمام، ثم وقفت وترددت للحظة قبل أن تتابع المسير. ارتجفت واقشعر جسمها وتملكها شعور لم تستطع تفسيره بأن هناك من يراقب كل حركة منها. التفتت إلى الخلف رافعة بصرها إلى المبنى، ولسبب ما لم تعد تراه ودوداً. لكنها حدثت نفسها بأن هذه فكرة سخيفة، ثم أسرعت الخطى نحو الباب الأمامي.

مدير وكالة «النجدة الطبية لما وراء البحار» والذي اشتغلت معه خلال السنوات الثلاث الماضية كان قد نبهها إلى أنها بحاجة ماسة إلى الراحة. فلقد أسرفت كثيراً في العناية بمرضاها صغار السن، ما سبب لها إرهاقاً، ولهذه الأسباب أصر عليها أن تعود إلى إنكلترا في إجازة لمدة ثلاثة أشهر، قبل أن تصاب بالإنهيار. رفضت من قبل أن تصدقه، ولكن ربما هو على صواب. ما دامت تتخيل أعيناً تراقبها في كل مكان، فهي حقاً بحاجة إلى الراحة.

انفتح الباب الأمامي على اتساعه فنسيت روز مخاوفها حين بدأ التعارف بين الأسرتين. تيريزا، والدة جيمي، بدت صغيرة الجسم، سوداء الشعر، وجذابة للغاية، وفي أواخر الأربعينات من العمر. أما أبوه فبدا طويلاً أشيب الشعر. وأكبر من زوجته بسنوات غير قليلة.

الحديث الذي دار في الردهة، كالمعتاد، شمل حالة الجوّ ورحلة القدوم. نظرت روز إلى خالها أليكس وزوجته جين، وأسعدها أن ترى الاطمئنان على وجهيهما. أما ابنة خالها آن، فكان خطيبها يشدّها إليه كأنه يخاف أن تهرب منه. النظرات التي كان الإثنان يتبادلانها دلت بوضوح أنهما

هائمان بحب بعضهما البعض.

وقبل أن تدعو تيريزا الجميع للصعود إلى غرفهم قالت: «لم يستطع أبي الحضور إلى يوركشاير من بيتنا في سيفيل بسبب قلبه المريض، لكنه يرجو أن يتحسن قبل العرس في أيلول».

- سيفيل؟

وخفق قلب روز: «أنت إسبانية؟ لكن ذلك لا يبدو عليك...».

قالت هذا بدون تفكير، ثم سكتت فجأة والاحمرار يعلو وجهها حين سكت الجميع والتفتوا إليها.

ضحكت تيريزا وسارعت تصلح الارتباك الذي ساد: «دوماً يخبرني زوجي أنني أبدو إنكليزية أكثر منه. أظن أن الأمر بسيط؛ لقد عشت هنا خمساً وعشرين سنة».

بدا الحديث عادياً بالنسبة إلى الجميع، إلا أنه شكل صدمة جهنمية لروز. ولم تصح من صدمتها حتى بعد أن تحرك الجميع صعوداً إلى غرفهم. فقد ظل القلق يساورها.

صعد خالها وزوجته إلى غرفتهما في مقدمة المنزل، ودخلت آن إلى الغرفة المجاورة، بينما اصطحبت تيريزا روز إلى آخر الردهة حيث أشارت إلى باب مغلق: «هذه غرفة أخي. لقد وصل هذا الصباح لكنه ذهب يتمشى بين المروج. ستتعرفين إليه عند العشاء».

ثم قادتها إلى الباب المجاور: «وهذه غرفتك أنت».

دخلت روز الغرفة بحركة آلية. أخوها! اقتران هذا الخبر بذكر سيفيل منذ قليل أرسل رعشة تحذير في كيانها. هزت كتفيها في محاولة لصرف هذه الأفكار من ذهنها. لا بد أن سكان مدينة سيفيل يبلغون مليوناً أو أكثر. واحتمال أن يكون أخوها هذا هو ذلك الرجل الذي تعرفت عليه في سيفيل منذ سنوات خلت، هو احتمال ضعيف ومستبعد.

مع ذلك، لم يذكر لها أحد شيئاً عن هذا الأخ.. ولكنها، في الحقيقة، بالكاد تحدثت مع آن طوال هذا الأسبوع الماضي. فقد استقبلها الخطيبان في

المطار، ثم أحضراها إلى شقتها في شمال لندن. وبعد أن فاجآها بخبر خطبتهما، طلبا منها أن تحضر حفلة العشاء للاحتفال بذلك أثناء العطلة الأسبوعية، ثم غادرا في اليوم التالي. وفي الواقع، أمضت روز معظم وقتها ذلك الأسبوع، في النوم.

أجالت نظراتها في أنحاء غرفتها المريحة، وتملكها الإغراء في أن تستلقي على ذلك السرير الفسيح وتنام مرة أخرى. لكن تيريزا طلبت منها أن تنزل عند الساعة السابعة لتناول الكوكتيل. فتحت حقيبتها وراحت تخرج ملابسها لتعلقها أو لتضعها في الأدراج.

أجالت بصرها في أنحاء الغرفة، فبدت لها غرفة جميلة، أثاثها مصنوع من خشب الصنوبر، بدا كل ما فيها بديعاً. فتحت باباً في إحدى نواحي الغرفة، فوجدت حماماً صغيراً أنيقاً مع حوض صغير.

دخلت روز تحت مياه الدوش الدافئة وتنهدت بارتياح. عندما عادت إلى إنكلترا الأسبوع الماضي، أخبرتها آن مباشرة بأنها مخطوبة. وتساءلت روز عما إذا كانت آن لا تزال صغيرة على ذلك فهي لا تزال في الواحدة والعشرين من سنها. وانتابها ما يشبه الشعور بالذنب لأنها كانت، بشكل غير مباشر، سبباً لمعرفتها بجيمي.

فأثناء سنوات غيابها، قامت روز بتأجير شقتها لشابين هما جيمي ومايك، ثم سمحت لآن بالسكن فيها مجاناً، وبذلك شغلت غرف الشقة الثلاث. فكان أن وقع جيمي وآن بحب بعضهما البعض.

كل شيء سيكون ممتازاً!. حدثت نفسها بذلك والماء الساخن ينساب على جسمها فيريحها ويزيل التوتر من عضلاتها.

بعد عشرين دقيقة، أغلقت روز باب الغرفة خلفها وأسرعت تهبط السلم. سمعت أصوات الثرثرة والضحك من باب غرفة الجلوس المواربة، فأخذت نفساً عميقاً، ثم دفعت الباب ودخلت.

ـ الأخيرة كالعادة، يا روزالين، لكنك جميلة كشأنك على الدوام.

قال الخال أليكس ذلك باسماً وهو يقف بجانب المدفأة. تقدمت روز

نحوه، وإذا بتريزا تتقدم من المستنبت الزجاجي وهي تقول: «أنت تعرفين الجميع هنا، روزالين، ما عدا أخي. اسمحي لي أن أقدمك إلى خافيار».

عند سماع روز اسم هذا الرجل، اضطربت خطوتها. هذا غير ممكن! إنها مصادفة فظيعة لا يمكن أن تحصل!

استدارت نحو تيريزا ببطء تمسح راحتيها المبللتين بالعرق بوركيها وقد تملكها التوتر.

كان شقيق تيريزا يتبعها خارجاً من المستنبت. لا يمكن أن يكون القدر بهذه القسوة!

ـ أخي خافيار فالدزبينو، وهذه ابنة عمة آن، الدكتورة روزالين ماي.

حدّق خافيار إليها وقد ظلل وجهه الأسمر نور الشمس القادم من خلال المستنبت الزجاجي خلفه، ثم تقدم إلى الأمام وملامحه البرونزية أشبه بقناع: «يسرني التعرف إليك يا دكتورة...».

وتردد صوته العميق لحظة: «روزالين ماي».

ومدّ يده مصافحاً. تركت روز يدها له وقد خدّرتها الصدمة، وهي تشعر بقوة أصابعه الطويلة التي التفّت حول أصابعها وهما تنظران في عينيه. لكن عينيه البنيتين الذهبيتين الهادئتين ابتسمتا لها ولم تبد فيهما أي إشارة إلى معرفة سابقة.

تمتمت بأدب: «أهلاً وسهلاً».

لكن قلبها كان يقرع كطبول الأدغال. أن تراه مرة أخرى بعد عشر سنوات، أمر يتطلب منها كل تحكم في النفس. فحضوره، بقامته الفارعة الطول وكتفيه العريضتين، ينضح بنفس الرجولة التي أغرتها في أول لقاء بينهما. ولولا مرور كل تلك السنوات، لما تمكنت من السيطرة على مشاعرها.

ـ يسرني التعرف إليك.

وأحنى رأسه. وقبل أن تدرك نيته، رفع يدها إلى شفتيه يطبع قبلة عليها. لو جاء هذا التصرف من أي رجل آخر، لبدا لها خارجاً عن

المألوف، ولكن، لأمرٍ ما، بدا منه طبيعياً تماماً. سرى فيها تيار كهربائي وأبعدت يدها عنه، بينما فتحت فمها وأقفلته من دون أن تنبس ببنت شفة.

ـ إني أوافق خالك تماماً على كلامه فأنت تبدين جميلة للغاية.

ونزلت نظراته من شعرها الملتهب احمراراً إلى وجهها حيث استقرت عليه لحظة، نزلت بعدها إلى ثوبها الحريري الأخضر، وأخيراً إلى ساقيها الطويلتين، قبل أن تعود إلى وجهها.

شعرت بالاحمرار يعلو وجنتيها. اكتسحت عيناها الخضراوان قامته الفارعة بنفس الدراسة الحادة. كان ذا بنية متينة بالغة القوة يرتدي بذلة عشاء سوداء رائعة التفصيل، مع قميص أبيض ناصع وربطة عنق سوداء على شكل فراشة، ما أعطى انطباعاً عن حقيقة شخصيته كأحد ملوك المال والأعمال الناجحين.

كان خافيار يموّل فريقاً خاصاً به للمشاركة في سباقات الفورمولا ـ وان، إرضاءً لهوايته في قيادة السيارات الرياضية.

أما الآن فهو يلعب دور زير نساء. إنه كذلك بالطبع، بغض النظر عن كونه متزوجاً!

ـ شكراً.

قالت ذلك بهدوء. وقد تمكنت من تمالك نفسها، بعد الصدمة التي تلقتها عند تقديمها إلى رجل لم تره منذ عشر سنوات، وتمنت ألاّ تراه بعد ذلك في حياتها أبداً.

ثم لاحظت ما جعلتها الصدمة تغفل عن ملاحظته من النظرة الأولى. وهو أن الوجه البالغ الوسامة لم يعد كما تتذكره. فثمة ندبة عميقة معقوفة كالمنجل تمتد من أذنه إلى فكه من ناحية واحدة، مشوّهة بشرته السمراء الرائعة. واستيقظ اهتمامها المهنيّ، فلاحظت أن تلك الندبة هي آثار جراحة تجميلية أجريت ربما إثر حريق، حيث أن الجلد الذي يحيط بالندبة كان أقل سمرة ويمتد إلى أسفل ياقة قميصه.

ـ أعتقد أنني سأكون رفيقك أثناء العشاء، يا روزالين. هل يمكنني أن

أخاطبك باسمك الأول روزالين؟ إلا إذا كنت تفضلين اسماً آخر.

ـ حسناً، أكثر الناس يدعونني روز، كذلك خالي وزوجته، لكنني لا أفضل اسماً بشكل خاص.

أجابته روز بحذر وقد ضاقت عيناها لرؤية ملامحه الصلبة العنيدة. أتراه عرفها رغم كل شيء؟ لا يمكنها أن تتأكد، فقد كانت مراهقة عندما تعارفا للمرة الأولى. كانت أنحف قواماً، وشعرها قصير أكثر دكنة مما هو الآن. فخلال السنوات الثلاث الماضية خففت شمس أفريقيا من لونه كثيراً. أما هو فقد كان حينذاك رجلاً ناضجاً في التاسعة والعشرين من عمره. إلا أن السنوات لم تغير شكله على الإطلاق، ما عدا تلك الندبة.

ـ إذاً سأدعوك روزالين. إنه اسم مليء بالأنوثة، وهو يناسبك.

قال هذا بصوت عميق، لم يفقد شيئاً من سحره، لحسن الحظ لم يبد عليه أنه عرفها. ولكن لماذا يعرفها؟ فهي لم تكن بالنسبة إليه سوى مجرد فتاة عرفها لليلة واحدة، وذلك بين آلاف الفتيات اللواتي عرفهن.

إنه غرور منها أن تتصور لحظة أنه ما زال يتذكرها، أو يتذكر الاسم الذي كانت تستعمله أثناء الفترة التي اشتغلت فيها كعارضة أزياء.

ـ كما تشاء.

قالت ذلك بعفوية، واعية تماماً إلى تفحصه الدقيق لها لكنها استبعدت أن يكون ذلك بسبب تذكره لها، فليست الذكرى هي التي تثير اهتمامه بها، وإنما مجرد ردة فعله كرجل أمام امرأة جذابة.

ـ والآن، يا خالي خافيار، لا تكن أنانياً. الفتاة المسكينة تكاد تموت عطشاً!

قال جيمي هذا وهو يظهر بجانبها فجأة عارضاً عليها كأس عصير. فأخذت منه الكأس باسمة، وقد سرّتها مقاطعته هذه.

تصاعد الضحك والتهاني، واغتنمت روز الفرصة لتنسل إلى آخر الغرفة لتنضم إلى زوجة خالها جين.

لكن انتابها شعور غامض بأن عينين داكنتين مقيّمتين كانتا تتابعان كل

حركة من حركاتها.

ربما كان عليها أن تعترف له بأنهما سبق وتعارفا من قبل، وأن بإمكانهما أن يتحدثا كصديقين قديمين... لا، لم يكونا صديقين قط... بل حبيبين، نعم!

أجفلت للذكرى، وشعرت بوخزة من الألم في قلبها، ولم تستطع منع نفسها من النظر إلى الرجل الذي سبب لها هذا الألم. الشعر الأسود الجعد أصبح الآن أطول، وقد ظهرت بضع شعرات فضية في سالفيه، الغضون الدقيقة حول عينيه أصبحت أعمق وكذلك الخطين العميقين على جانبي فمه. لكنه ما زال أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية... وفي هذه اللحظة، رفع رأسه بعد حديث كان يتباد له مع زوج أخته، فاخترقت عيناه الثاقبتان عينيها. ونظرت إليه وهو يتقدم منها.

بدت كأرنب سلطت عليه أضواء سيارة بشكل مفاجىء. كانت أضعف من أن تحول نظراتها بعيداً. ما الذي يحدث لها؟ لقد تخلصت من هذا النوع من الهراء منذ وقت طويل. لكن خيبة الأمل تملكتها عندما أصبح قريباً منها، فإذا به ينظر إلى خلفها ليقول لخالها وزوجته: «أليكس، جين، أبلغني دايفيد بوصول السيارات، فإذا كنتما جاهزين الآن ستتحرك».

عند ذلك فقط نظر إلى روز: «نحن الأربعة سنستقل سيارة واحدة، إذا كان ذلك يناسبك، يا روزالين».

ـ نعم، طبعاً.

وماذا يمكنها أن تقول غير ذلك؟

فسألها بصوت منخفض: «هل أنت واثقة؟ يساورني شعور بأنك متلهفة إلى الابتعاد عني، وأرجو أن أكون مخطئاً».

قال هذا بسخرية بطيئة وعيناه ما زالتا مشتبكتين بعينيها.

شعرت روز باحمرار الغضب يتصاعد إلى وجنتيها، لكنها ابتلعت جواباً لاذعاً ووقفت ببطء لتقول بمرح: «أنت مخطىء فعلاً. هل نذهب؟ أكاد أموت جوعاً».

ومرة أخرى، وبمزيد من عدم اللباقة، أخذت نظراته تنحدر على قوامها المتناسق لتعود فتستقر أخيراً على وجهها البيضاوي. ثم أمسك بمرفقها قائلاً: «أعرف هذا الشعور، لأن جوعي أنا أيضاً قد تصاعد خلال دقيقة».

ألقت عليه نظرة حذرة من تحت أهدابها الكثيفة. أدركت أنه يتعمد استفزازها. آخر شيء تريده هو قضاء أمسية مع خافيار. كادت تتأوه عندما أدركت أن الأمر لن يقتصر على هذه الأمسية فقط بل سيشمل العطلة الأسبوعية بأكملها على الأرجح. وهي لن تستطيع الرحيل قبل صباح الإثنين مع خالها وزوجته، حيث ستمكث معهما مدة أسبوع أو أسبوعين. كانت حقيبتها الأخرى لا تزال في سيارتها مع كومة من الكتب ابتاعتها منذ سنوات وهي تتلهف إلى قراءتها.

ـ متى ستعود إلى إسبانيا؟

سألته من دون تفكير، فيما هما يخرجان معاً من المنزل، متوجهين إلى السيارة الليموزين التي كانت في انتظارهم. دفء يده على ذراعها ذكرها بمشاعر ظنت أنها أصبحت منسية منذ وقت طويل.

ـ أنت لا ترضين غرور الرجال كثيراً، روزالين. لقد تعارفنا للتو وإذا بك تسألينني متى أرحل.

قال ذلك ببطء فرأت السخرية في عينيه.

ـ لا، صدقني! كل ما قصدته هو القيام بحديث مهذب.

ـ المعذرة، فأنا غير متمكّن من الحديث الاجتماعي بالإنكليزية.

وانحنى يهمس في أذنها: «ربما بإمكانك أن تعلميني».

وتركها فجأة متراجعاً ليفسح المجال لخالها وزوجته بالصعود إلى السيارة أولاً. وفكرت روز غاضبة أن عليها أن تحمد الله لأن المسافة إلى الفندق لن تستغرق سوى عشر دقائق. وألقت نظرة جانبية عليه وهو يجلس بجانبها. راح يتحدث بسهولة تامة مع خالها وزوجته بينما هي تجاهد بتوتر لكي تبقي جسمها بعيداً عن جسمه. كانت كتفه تحتك بخفة بكتفها في كل

مرة ينعطف فيها السائق في طرقات بوركشاير. لكن لم يبد على خافيار أنه يهتم لذلك.. فملامحه بقيت هادئة تماماً.

ـ روز زارت إسبانيا ذات مرة.

اصطدمت كلمات زوجة الخال بأفكار روز الشاردة.

ـ لقد أمضيت إجازة هناك.

قالت روز هذا بسرعة. فهي لا تريد أن تذكر جين أنها كانت ذات يوم عارضة أزياء، فذلك سينبه ذاكرة هذا المتغطرس.

ـ إذن فقد زرت بلادي، يا روزالين؟ أين كنت تقيمين؟

لم تر في ملامحه شيئاً سوى السؤال المهذب، وعنّفت نفسها لمبالغتها في ردة فعلها. فالرجل لم يعرفها على الإطلاق، أجابت ببرودة: «آه، كنت في برشلونة. إنها مدينة رائعة».

ـ أوافقك على ذلك، فقد اعتدت أن أزور برشلونة كل عام لأجل السباق الكبير. لكنني لم أذهب إلى هناك منذ سنوات.

نظرت روز إليه متأملة. مع أن ملامحه حافظت على ذلك الاهتمام المهذب إلا أن ضيقاً بسيطاً ظهر في عينيه. تساءلت روز للحظة، إذا ما كان يبدي التهذيب أكثر مما ينبغي... وكأنه يخفي شيئاً تحته. وفكرت بجفاء في أنها لا تريد العبث مع هذا الرجل.

سأله أليكس بحماسة: «هل اعتدت المشاركة في سباقات السيارات؟».

ـ لا، بل اعتدت مساندة فريق إرضاءً لهوايتي فقط. لكنني، لسوء الحظ، التزمت بأمور أخرى ولم يعد لدي الوقت الكافي لذلك. لكنني ما زلت أعشق السيارات، ولديّ مجموعة جيدة منها في بلدي.

ـ هل رأيت سيارة روزالين؟ إنها رائعة.

عاد خافيار باهتمامه إلى روز: «نعم، رأيتها أمام البيت... إنها جاغوار من طراز ـ إي».

واشتبكت عيناه بعينيها: «إنها سيارة سريعة نوعاً ما بالنسبة إلى سيدة كما أظن».

ـ بل هذا رأي متعصب نوعاً ما بالنسبة إلى القرن الواحد والعشرين، كما أظن.

أجابته بذلك بعداء. فهي تكره تعصب الرجل ضد المرأة مهما كان نوعه.

ـ لا أظنك إحدى أولئك النساء الثائرات اللاتي يعتقدن أن الرجل لا يصلح إلا لشيء واحد؟

كان الهزل والسخرية واضحين في لهجته. فسألته:

ـ وماذا لو كنت كذلك؟

ـ برأيي، إن النساء الجميلات خُلقن لكي يحميهن الرجل ويحبهن ويدللهن هذا عدا عن إنجاب الأطفال. من المؤسف أن يكون للمرأة التي تبدو كالملاك، عقل كالفخ الفولاذي. تلك خصلة شاردة!

ورفع يده بزيح خصلة من شعرها الأحمر ويضعها خلف أذنها.

التهبت عينا روز وصعد الدم إلى وجهها غضباً. إنه يوتر أعصابها عمداً.

ـ أليست أفضل من أولئك الذين لايملكون عقلاً على الإطلاق، كبعض الرجال الذين عرفتهم؟

ردت عليه بذلك بغضب، وقد غمرها إحساس غريب للمسة يده وهو يزيح خصلة الشعر عن خدها.

فقال بجفاء: «إنما كنت أمزح، ظننته أمراً مسلّياً أن أكتشف ما إذا كان طبعك يماثل شعرك الأحمر عنفاً».

* * *

٢ ـ عندما يطبق الفخ

حملقت روز في خافيار، ثم دفعت رأسها إلى الخلف: «لو كنتَ أمضيتَ السنوات القليلة الماضية في المناطق المتوترة في العالم، كما فعلت أنا، وكان عليك أن تصلح الضرر الذي يلحق بالفتيات الصغيرات، لما وجدت هذا الموضوع مسلياً».

لوى خافيار فمه، للطريقة التي كانت روز تنظر بها إليه، ثم قال بهدوء: «يبدو أنني كدّرتك ولم تكن هذه نيتي، وأنا أعتذر من كل قلبي».

فقال أليكس: «لا تقلق لهذا، خافيار. فروز تملك طباعاً حادة، ومن سوء حظك أنك طرقت موضوعاً حساساً بالنسبة إليها. لكنها ستنسى ذلك».

ـ أرجوك يا خالي، يمكنني أن أتحدث عن نفسي.

قالت هذا متجاهلة اعتذار خافيار. فهي تكره الظلم مهما كان نوعه وخصوصاً ظلم الأطفال. وفي أعماقها مازالت تشتعل غضباً وكراهية بسبب تصرف خافيار نحوها عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها، ولا تكبر الأطفال كثيراً. كانت تجاهد لوضع هذا الماضي خلفها. لكن رؤيتها لخافيار مرة أخرى، قد أعادت إلى ذهنها كثيراً من الذكريات المرة. أما هو، فيبدو أنه لم يتذكرها. تباً له!

كانت روز تعرف الفندق الذي يقصدونه لتناول العشاء. فعندما كانت صبية صغيرة، كانت تمضي معظم عطلاتها المدرسية في بيت خالها في مدينة يوركشاير. وكثيراً ما كانت تتناول العشاء فيه. جلست تيريزا عند طرف

المائدة المستطيلة، بينما جلس زوجها عند الطرف الآخر. وعندما رأت روز خالها وزوجته يجلسان، أسرعت وجلست إلى جانبهما فهي لم تشأ أن تجلس إلى جانب خافيار. لكن ارتياحها كان قصير الأمد، فما إن رفعت بصرها حتى اكتشفت أن خصمها يجلس قبالتها مباشرة مع آن وجيمي بجانبه.

اصطدمت نظراتها المجفلة بنظرات خافيار. وللحظة، خيّل إلى روز أنها رأت شيئاً قاتماً شريراً يلمع في أعماق عينيه، فأسرعت تختبىء خلف قائمة الطعام. لكنها لم تستطع أن تركز أفكارها على الأطباق التي تحتويها. فأفكارها كانت مشغولة للغاية بالرجل الصلب الساخر الذي يجلس أمامها. دارت في ذهنها أسئلة كثيرة: لماذا حضر خافيار إلى هنا وحده؟ إنها تعلم تماماً أنه متزوج، فأين زوجته إذن؟ هل لديه أطفال؟ أخذت تتساءل وقد خفق قلبها.

ألقت على خالها نظرة جانبية. فهو وزوجته وآن أسرتها الوحيدة، بعد أن قتل والداها في حادث تحطم طائرة وهي في السابعة عشرة من عمرها. وعندما تتزوج آن من جيمي، ما الذي سيحصل لها؟ إنها لا تستطيع احتمال فكرة أن يكون خافيار عضواً من أسرتها. لن تستطيع أبداً أن تستمر في التظاهر بعدم معرفتها به. وفي الواقع، يساورها الشك منذ الآن في قدرتها على قضاء العطلة الاسبوعية من دون أن تخبر الرجل بشعورها نحوه بالضبط، وهو أنه فظ كريه مراوغ متعصب. فهي تكرهه بعنف يتناقض مع طبيعتها المحبة. ولم تكن مزهوة بهذا الشعور، لكنها لم تستطع منع نفسها من ذلك.

ـ هل قررت ما ستطلبينه من طعام، روزالين، أم أختار لك بنفسي؟

قاطع أفكارها بصوته العذب الشجي. جرأته على هذا الاقتراح جعلت أعصابها الحساسة تتوتر، فأنزلت قائمة الطعام وأخذت تتأمل وسامته الخشنة بعينيها العاصفتين.

تلك الندبة ستبدو قبيحة في وجه أي رجل آخر، أما هو، فقد منحته هالة من القرصنة وزادت من جمال ملامحه. أدركت انه يتعمد مضايقتها بما

عرضه عليها.

ألقت قائمة الطعام على المائدة: «لست بحاجة إلى عون منك. أطلب سلطة قريدس وبطيخاً أصفر».

- هل تتبعين ريجيماً للحفاظ على قوامك؟ لست بحاجة إلى ذلك، صدقيني، لأن قوامك متناسب بدقة بالغة. لابد أن الكثير من الرجال غيري قد أخبروك بذلك.

قال هذا رافعاً حاجبه بهزل.

لم يفقد شيئاً من سحره الأسطوري. نعم، إنه ماهر! حسناً، يمكنهما القيام بهذه اللعبة معاً. قالت روز تدّعي الخجل وهي تنظر إليه مرفرفة بأهدابها: «أنت تتملقني، سنيور ڤالدزبينو».

قال لاوياً شفتيه: «خافيار من فضلك. وأنا لا أتملقك، فأنت امرأة رائعة الجمال من كل النواحي».

وسكت لحظة، ثم عاد يقول وهو يتأملها: «إنه جمال كامل، من الإجرام أن تفسده رغبة حمقاء في النحافة».

كلامه عن النحافة بدا مألوفاً بشكل مخيف، فقد قال الكلام نفسه تلك الليلة التي أمضاها معها. ضاقت عيناها وهي تنظر إلى وجهه الأسمر بحذر، لكن ملامحه لم تكشف لها شيئاً. فأجابت وهي ترغم نفسها على مواجهة نظراته الساحرة: «آه، أنا لا أستعمل قط نظاماً للنحافة. كل ما في الأمر أنني أحب السَلَطة، وأنا أراهن على أنك ستطلب شرائح لحم بقر».

ثم أضافت وهي تفتح عينيها على اتساعهما بدهشة ساخرة: «آه، ربما لا! فقد نسيت أنك ثور».

وأرادت أن تضيف كلمة أخرى لكنها أمسكت لسانها في اللحظة الأخيرة.

فقالت جين مؤنبة: «روزالين، كيف تقولين هذا؟».

كانت روز مستغرقة في تبادل الكلام مع خافيار فلم تنتبه أن الآخرين قد سكتوا عن الكلام ليسمعوا حديثهما. لكن الضحك في عيني جيمي وآن

أنبأها بأنهما سمعا ذلك.

- ماذا؟

ألقت روز هذا السؤال وهي تنظر إلى المجتمعين حول المائدة. ثم هزت كتفيها وتابعت تقول: «ما أعنيه أن خافيار إسباني، وكما فهمت، في إسبانيا يأكلون الكثير من لحم البقر. وهذا ما يجعلهم يحبون مصارعة الثيران».

قالت هذا متصنعة البراءة، وتملكها الارتياح عندما رأت أن خالها وزوجته اقتنعا بذلك. لكن نظرة منها إلى وجه خافيار أنبأتها بأنه لم ينخدع. التوى فمه بابتسامة جافة، فقد أدرك أنها تقصد إهانته: «هذه الإلفة الفورية بين غريبين هي أمر محير تماماً. وكأنك قرأت أفكاري، باروزالين، فأنا سأطلب سمك سلمون مدخن في البداية، ثم شرائح البقر. ولن أتردد في تناول لحم البقر الانكليزي، مع أن كل الدول الأوروبية ترى أن من الأفضل تجنبه لوقت طويل. فأنا واثق أنه لذيذ تماماً كلحم الثور الأسباني».

قال ذلك بشيء من السخرية لم تفتها ملاحظتها. وأنقذها من الجواب قدوم النادل ليأخذ طلباتهم.

وصل أول نوع من الطعام، فقررت روز أن تبقي رأسها منحنياً فلا تتحدث إلا إذا تحدثوا إليها، لكن ذلك لم يكن سهلاً تماماً.

أصر جيمي، وقد برّح به الحب، على شرب نخب كل شخص، بما في ذلك روز: «لو أنك لم تؤجري بيتك في لندن، ربما ماكنت سأتعرف إلى آن».

فقالت روز ضاحكة: «أرجو ألا تندم على ذلك، فأنا أعرف أن آن فتاة صعبة المراس. أتذكر يوم كانت في العاشرة من عمرها وأنا في الثامنة عشرة وحاولت إقناعي بأن نذهب إلى الصيد على حمارين كان خالي أليكس يحتفظ بهما حينذاك. ما كنت لأمانع في ركوب الحمار لكنني لم أوافقها على الصيد فأنا لا أحب قتل الحيوان!».

مال خافيار إلى الأمام قليلاً بعد أن أزاح طبقه جانباً فأصبح وجهه بمستوى وجه روز: «هذا حديث ممتع. هل تحبين ركوب الخيل،

روزالين؟».

سألها باسماً، فنظرت في عينيه بجرأة وقد أدركت أن سؤاله لا صلة له بالصيد. كان اللمعان الذهبي للصياد البدائي يتألق في عينيه. هذا الرجل اعتاد أن يحصل على أي امرأة يريدها من دون بذل كثير من الجهد.

أجابته بمرح وبلهجة واقعية، متجاهلة التحدي الذي ظهر في عينيه: «اعتدت ركوب الخيل عندما كنت أحضر لزيارة بيت خالي. ولكن لم تسنح لي فرصة لذلك منذ أعوام، إلا إذا كنت تعتبر الجلوس على ظهر جمل في صحراء «كالاهاري» هو كركوب الخيل. لكنني أشك كثيراً في أن يعجب هذا الأمر رجلاً مثلك... ذا وضع إجتماعي هام».

ـ قد يتملكني الإغراء لذلك إذا أنت صحبتني. المرأة الجميلة حافز قوي لإنجاز أي شيء.

قال هذا بصوت عميق مغرٍ، فنظرت إليه بهزل. إنه أمر محيّر! حتى عندما يغازلها، يبدو في نظراته نوع من الشرود يتناقض مع المجاملات التي يبديها. لكن روز لم تشأ أن تضيّع الوقت سدى في تحليله. لم تكن تريد أي صلة معه.

ـ أنت تضيّع وقتك سدى يا سنيور ڤالدزبينو.

ـ آه، لا أظن ذلك. وعلى كل حال، ما زال الليل في أوله.

استند خافيار إلى ظهر كرسيه ثم عاد ينظر إليها قائلاً: «مع معرفتنا لبعضنا أكثر فأكثر، من يعرف ماذا سيحدث يا عزيزتي روزالين».

نطق بكلمات الإغراء تلك ببطء يغيظها وضحك الجميع لقوله هذا من كل قلوبهم، فيما ابتسم هو ابتسامة عريضة، لكن روز وحدها لاحظت أن ابتسامته لم تصل إلى عينيه. فردت بحدة: «لا أظن أن زوجتك تجد قولك هذا مسلياً».

راح يتفحصها من تحت أجفانه الثقيلة. ثم سألها بنعومة: «وما الذي جعلك تظنين أن لي زوجة؟».

انتبهت روز إلى الصمت الشامل الذي استُقبل به قولها هذا، والتوتر

المفاجيء الذي بدا على الرجل أمامها. وأدركت أنها كشفت تقريباً عن معرفتها السابقة به. فكرت بسرعة محاولة أن تخفي اضطرابها بلومه على موقفه المتعصب السابق: «حسناً، بالنسبة إلى رجل في سنك مع وجهات نظرك تلك... تصورت أن تكون متزوجاً ولديك ثلاثة أو أربعة أولاد عند قدميك، وربما امرأة حبلى في البيت».

قالت هذا وهي ترفع حاجبيها هازلة.

ـ قوة الملاحظة لديك رائعة حقاً، حتى ليكاد المرء يظن أننا سبق وتعارفنا من قبل.

تصلّبت روز. لقد عرفها! لكنه تابع يقول، وصوته بعناد ملاحه: «نعم، كنت متزوجاً ولكن ليس لدي أولاد مع الأسف. وقد ماتت زوجتي منذ سنتين».

ـ آسفة.

تمتمت بذلك وقد احمرّ وجهها وتمنت لو أن الأرض تنشق وتبتلعها. قفزت آن واقفة لتجنبها المزيد من الارتباك بقولها: «المعذرة ولكن عليّ الذهاب إلى الحمام. هل تأتين معي روز؟».

انتهزت روز هذه الفرصة للهرب، فوقفت وسارت خارجة من الغرفة مع ابنة خالها.

ـ يا إلهي، روز! ماذا تحاولين أن تفعلي؟ تنهين خطوبتي قبل أن تبدأ؟

قالت آن هذا وهي تجرها من ذراعها.

ـ لا أدري ماذا تعنين؟

قالت روز هذا مستنكرة وهي تنظر إلى الجدران المبطنة بالمرايا، ثم إلى آن، وقد تملكها الاضطراب لمظهر القلق على الوجه الجميل.

ـ آه، لأجل الله، روز! خافيار ڤالدزبينو هو رأس الأسرة. لقد تقاعد أبوه الدون بابلو أورتيغا ڤالدزبينو وهو مريض جداً. وهكذا إذا صمم خافيار على منع زواجي من جيمي، فيمكنه ذلك... أنا أعلم أن جيمي يحبني لكن خاله هو الذي يدفع نفقاته وأقساط الجامعة وما زال أمامه سنة

لينخرج. الغاية من هذه الحفلة أن تتوحّد أسرتانا وأنت لم تفعلي شيئاً سوى إهانة خافيار منذ تعرفت إليه. ماذا حدث لك؟ إنه رجل ساحر مهذب، كبير السن قليلاً لكنه ليس قبيح الشكل باستثناء الندبة... هل هي الندبة؟

ونظرت آن إليها متسائلة بحيرة: «أنت طبيبة! ولا أصدق أن أمراً كهذا يؤثر على رأيك فيه».

ـ لا، لا... كلا بالطبع!

أنكرت روز هذا بعناد وقد تأثرت لفكرة أن تظن آن بها ذلك: «لم أدرك قط مبلغ أهميته بالنسبة إليك وإلى جيمي. لا بد أن دايفيد وتيريزا ثريان أيضاً. المزرعة فسيحة، ثم هناك إصطبلات خيول السباق. ألا تظنين أنك تولين رأي خال جيمي أهمية أكثر مما يستحق؟».

سألتها هذا بوقاحة، فعبست آن: «من الواضح أن غيابك لوقت طويل وراء البحار، واستغراقك في مهنتك جعلاك غافلة عما يدور في بقية العالم. في السنوات القليلة الماضية تعطلت أعمال أصحاب مزارع البقر في إنكلترا. فمرض جنون البقر وحظر أوروبا استيراد لحومها تسبب بإقفال المئات منها. أما إصطبلات السباق فلا تكاد تفي بنفقاتها، حسب قول جيمي. ولولا مساندة خاله للمزرعة لأفلست وانهارت. ولهذا، لأجل الله، حاولي أن تكوني لطيفة مع خافيار وإلا حطّمت كل شيء. إن جيمي يعتمد عليه ليمنحه المال لكي يبدأ عمله كطبيب بيطري وذلك خلال سنتين أو ثلاث».

ـ لم أدرك ذلك قط.

قالت روز ذلك، مقطبة جبينها. لقد انقطعت صلتها بآن مدة سنوات، كما أدركت، وقد ساورها شعور بالذنب. الفتاة الصغيرة التي كانت تتبعها إلى كل مكان وهي صغيرة، أصبحت الآن امرأة شابة جديرة بالثقة، تعلم بالضبط ما تريده من الحياة. وتنهدت: «الحق معك، ربما طال غيابي عنكم، فنسيت كيف أتصرف. ولكن من الآن فصاعداً، سأكون في منتهى العذوبة والمرح مع السنيور خافيار ڤالدزبينو. هذا وعد».

ونظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة، وسوّت شعرها ثم اعتدلت في

وقفتها: «لن يكون لديه سبب للشكوى. أؤكد لك يا آن».

ـ هذا مناسب أكثر.

قالت آن هذا ضاحكة ثم نظرت باستحسان إلى انعكاس صورة المرأة الطويلة بجانبها: «لقد عادت عارضة الأزياء المتفوقة».

ـ ولِمَ لا؟ ستجدينه راكعاً عند قدميك إذا عرف ذلك، فأنا أراه مفتوناً بك.

ـ لا. أنا أعني ذلك حقاً، يا آن. لا أريد كلمة واحدة عن عرض الأزياء.

ـ لا بأس، ولكن عليك أن تفي بوعدك، كوني لطيفة مع الرجل. إنه عريس ممتاز حتى لامرأة مثلك كرست نفسها لمهنتها. صحيح أنه سمكة باردة نوعاً ما، لكنه ثريّ ومحنّك وأعزب. ماذا تريدين أكثر من ذلك.

السمكة الباردة كانت تتجاوز الحد، لكن روز أدركت تماماً ما تعنيه آن. فخافيار رجل مهم بالنسبة إلى أسرته لما تميز به من يقظة واتزان. أما بالنسبة إلى ما تبقى من صفاته... واعترفت روز في داخلها بأنها، في فترة ما، كانت ستوافق آن على رأيها ولكن ليس الآن. قالت وهي تمسك بذراعها وتتجه بها نحو قاعة الطعام: «أتعلمين، يا ابنة خالي؟ لقد أدركت لتوّي أن لديك، في طبيعتك الرائعة، نزعة مادية».

ـ لا، لكنني أحب جيمي من كل قلبي، وأنا ببساطة، أتصرف بشكل واقعي.

لم تحاول روز أن تجيب، فقد علمت أن آن على حق. وعندما عادتا إلى مكانيهما على المائدة قال جيمي: «كنا قد بدأنا نتساءل عما إذا كنتما تهتما».

فقال خافيار: «هذا ما يظنه الشباب في مثل سنك جيمي. أما نحن الأكبر سناً، فنتعلم من خبرتنا...».

وتبادل النظرات مع أليكس ودايفيد: «أن السيدات يذهبن دوماً إلى الحمام أزواجاً وهناك يبدآن بتبادل الأحاديث عن الرجال في حياتهم، فيمزقنهم إرباً. بينما نحن الرجال المساكين ننتظرهن لساعات».

قوبلت تعليقاته بالضحك والاستحسان، ثم أصبح الحديث عاماً.

تناولت روز الطعام الذي وضع أمامها، من دون شهية. وحاولت جهدها ألا تنظر إلى خافيار، ولكن، لسبب ما، كانت عيناها تنجذبان إليه باستمرار. انتهى طبق الطعام الرئيسي وأُحضرت الحلوى. وبعد ذلك تطرّق الحديث إلى الأسفار.

ـ أخبرتني جين بأنك أمضيت خارج البلاد ثلاث سنوات. لا بد أنك حصلت على بعض الخبرات الهامة.

خاطبها خافيار بذلك مباشرة لأول مرة منذ أكثر من ساعة. وإذ كانت مليئة الذهن بوعدها لآن، أرغمت نفسها على الابتسام: «على قليل من ذلك. فقد أمضيت معظم الوقت بالعمل، والمزيد من العمل. هناك نقص بالغ في الأطباء في أكثر المناطق الأفريقية، خصوصاً المناطق الريفية. نحن في الغرب تتوفر لدينا مختلف الخدمات. بمجرد اتصال تليفوني تصل سيارة الإسعاف، فنسي بعضنا أن معظم مناطق العالم ليست محظوظة بهذا الشكل».

توهج وجهها حماسة لهذا الموضوع ما فتن الرجل الذي كان يستمع إليها، وبدت روز غافلة عن ذلك.

قاطعت جين الحديث: «حقاً يا روز، هل يتوجب عليك أنت الاهتمام بذلك؟».

ـ إنه عار علينا جميعاً يا جين.

والتهبت عيناها: «نحن في القرن الواحد والعشرين وما زال هناك أماكن كثيرة في العالم تسير فيها المرأة أياماً وهي تحمل طفلاً مريضاً، فقط لكي تصل إلى عيادة طبيب، ولا أقول مستشفى».

ـ إنسي ذلك هذه الليلة على الأقل يا روز. أنت تعرفين ما قاله رئيسك في العمل (ثلاثة أشهر من الراحة).

فأجابت: «هذا لن يمنعني من التعبير عن رأيي في الموضوع».

وسكتت فجأة لرؤية وجه آن العابس عبر المائدة.

ـ أنت في عطلة طويلة إذن؟ لم أعلم ذلك.

اندفع خافيار يقول هذا مالئاً بذلك الصمت المفاجىء في هذا الحديث وقد ضاقت عيناه.

ـ وكيف لك أن تعلم؟

رفعت روز عينيها إليه وأخذت نفساً سريعاً لا إرادياً. رأت وميضاً غريباً في تينك العينين المتألقتين، وميضاً أسود وخطراً بشكل غامض. وقالت كاذبة: «فقد تعارفنا لتوّنا».

وارتسمت في ذهنها فجأة صورة كاسحة لقامته الطويلة البرونزية، فتملكها شعور عنيف. أذهلتها ردة فعلها هذه. فمنذ سنوات طويلة لم يتجاوب جسمها أمام سحر رجل. تحديداً منذ عشر سنوات، لم تشعر بأحاسيس مشابهة حتى لكادت تنسى وجودها. فلماذا الآن؟ ربما عطفها على خافيار ڤالدزبينو لموت زوجته قد خفف من غضبها منه، ما جعلها تشعر فجأة برجولته البالغة.

سلخت نظراتها عن نظراته، وانحدرت بها إلى فكه القوي وندبته البشعة. لكن ذلك كان غلطة فقد زاد ذلك من اضطراب مشاعرها. ابتلعت ريقها بصعوبة، وحدثت نفسها بأن عليها أن تتعقل. أغمضت عينيها لتّرد صور الماضي من ذهنها. ثم عادت وفتحتهما، ولم تدرك إلا بعد لحظة أن خافيار لا يزال يتحدث إليها.

ـ يجب أن تأتي غداً مع جيمي وآن. أصرّ عليك.

هزت رأسها باضطراب وعيناها الخضراوان مسمرتان بحذر على الرجل الذي يجلس أمامها. ما الذي كان يتحدث عنه؟ وإلى أين عليها أن تأتي مع جيمي وآن؟

انضمت آن إلى الحديث: «إنها فكرة عظيمة. وهكذا لن أكون وحدي مع الرجلين بدون رفيقة أتسوّق معها».

فقال جيمي وهو يضحك موافقاً: «يجب أن تأتي يا روز. فحضورك ينقذني من مرافقة آن إلى التسوّق».

قالت زوجة خالها جين: «نعم. ذلك سينفعك كثيراً».

ولكن ماذا؟ أخذت روز تفكر وهي تنظر حولها إلى الوجوه الباسمة. بدا أن الجميع يحبذون أن تخرج مع آن وجيمي غداً. ونظرت إلى وجه آن الباسم فرأت التوقع في عينيها البنيتين. فقالت: «نعم، لا بأس، ولكن إلى أين سنذهب بالضبط؟».

ـ إلى بيتي في إسبانيا.

قال خافيار هذا بهدوء وهو ينهض واقفاً: «والآن بعد أن استقر رأينا، أعتقد أن القهوة تقدم في البهو، ولاشك أن هذين الفتيّين يفضلان النزول إلى المقصف ليقابلا أصدقاءهما».

قفزت روز واقفة: «انتظر لحظة. لايمكنني أن أذهب إلى إسبانيا. ظننتكم تعنون نهاراً في «ليدز» للتسوق أو ما شابه».

كانت تهذر، علمت ذلك على الفور. ما الذي وافقت عليه؟ ونظرت حولها بفزع والجميع يقفون معاً، وفجأة انصبّت عليها سبعة أزواج من الأعين بدرجات مختلفة من التسلية.

وقالت جين زوجة خالها: «طبعاً يمكنك ذلك. ستجدين من البهجة أكثر مما ستجدينه معي ومع أليكس. هل جواز سفرك معك؟».

ـ نعم، ولكن...

ـ هذا حسن، ليس ثمة مشكلة إذن.

ـ ولكن لا يمكنني الذهاب إلى إسبانيا بهذه السهولة.

ونظرت روز إلى خافيار، لكنها لم تجد أي عون لديه. كانت عيناه تلمعان بتسلية شيطانية وهو يرى ارتباكها هذا.

ـ حسناً، جيمي، جدك مريض ولن يرغب باستضافة امرأة غريبة في بيته.

قالت هذا متوسلة بجيمي. فقالت تيريزا بحزم: «على العكس من ذلك تماماً. أبي تقليدي للغاية. وفي الحقيقة لم يكن مسروراً لإقامة آن في مسكن واحد مع جيمي قبل الزواج بدون أن يكون لديها مرافقة».

ـ مرافقة؟ لا بد أنك تمزحين؟

كررت روز غير مصدقة. ولكن لم يكن هناك من يضحك.

ـ كلام أختي صحيح.

قال خافيار هذا ببطء واشتبكت نظراته الهادئة بنظراتها الملتهبة وهو يجيب بهدوء: «تقضي التقاليد عندنا أن ترافق الفتاة التي ستصبح عروساً امرأة أكبر منها سناً. بمجيئك معنا ستقدمين لي ولتيريزا خدمة كبرى، وتمنحين أبي سكينة النفس أثناء مرضه الشديد هذا».

فقالت آن وهي تسير لتقف بجانب روز وتضع يدها على ذراعها: «خافيار على صواب. قولي إنك ستأتين معنا، أرجوك».

حركت روز فمها ولكنها لم تنبس بكلمة. وتوترت ملامحها وهي تنظر إلى وجه خافيار التهكمي. فقد بدا مستمتعاً بما يجري، أما هي فقد شعرت بنفسها وكأنها عانس كبيرة في السن. عادت تنظر إلى آن فرأت القلق في عينيها البنيتين.

ـ نعم، لا بأس.

لم يكن بإمكانها القيام بخلاف ذلك. ولكن كيف لها أن تتحمل العيش في المنزل نفسه مع خافيار فالدزبينو؟

عانقتها آن وهي تقول: «هذا عظيم. سأراك في الطابق الأسفل إذن. سنستمتع بوجودك معنا في إسبانيا».

ثم غمزتهاوتركتها. وقال لها خافيار وهو يضع يده على ظهرها: «اسمحي لي أن أرافقك إلى البهو. تبدين شاحبة قليلاً، فأنت لم تتناولي الكثير من الطعام».

كان يسخر منها. إنها تسمع هذا في نبرة صوته. هذا المتغطرس يعرف أنها لا تريد الذهاب إلى إسبانيا. ما الذي جعلها تضع نفسها في مأزق كهذا؟ قالت بجفاء: «كيف يمكنني أن أرفض إزاء هذه الأسباب؟».

دفء يده على ظهرها أرسل رجفة في كيانها، جاهدت بكل ما تملك من إرادة للسيطرة عليها. يا لغبائها! كان عليها أن ترفض.

تملكها الارتياح عندما أبعد يده عن ظهرها. ورأت روز ثلاث أرائك

مرتبة حول منضدة قهوة منخفضة فتقدمت لتجلس مع خالها أليكس على إحدى هذه الأرائك، وراحت تسوّي تنورتها بيديها اللتين كان العرق ينضح منهما. وجلس خافيار أمامها مع أخته فيما جلست جين ودايفيد على الأريكة الثالثة. ثم جيء بالقهوة، ودار الحديث حول أملاك فالدزبينو في إسبانيا.

ـ أعدك بألاّ يصيبك الملل.

قال خافيار هذا بصفاء، وعيناه تحومان على وجهها الرائع الجمال: «أبي يقطن في منزلنا الذي في المدينة حالياً، فهكذا يكون قريباً من المستشفى إذا ما احتاج إلى رعاية أثناء غيابي. قد تتمكنان، أنت وآن، من رؤية المدينة خلال إقامتنا هناك، ثم نعود إلى المزرعة، وهذا يعتمد على ما قد يقوله الطبيب لأبي».

ـ يبدو هذا حسناً جداً.

قالت روز هذا موافقة، بعد أن استطاعت كبح نبرة ساخرة في صوتها. فكرة قضاء أسبوع في صحبته بدت لها أشبه بإجازة في جهنم! والأسوأ من ذلك أنها واثقة أنه يعرف شعورها بالضبط! إنها تراقب تصرفاته منذ نصف ساعة. كان رجل الأعمال الدمث المهذب المحنك يدير الحديث بمهارة. لم يوجّه اهتمامه ولو مرة واحدة إليها أكثر مما كان يوجهه إلى زوجة خالها أو إلى أخته. ولكن كان هناك شيء ما... وراء ثقته الهادئة الظاهرة بالنفس، أحست بشيء بدائي... رأته في لمعان عينيه الداكنتين عندما كان يتنازل ويريحهما على وجهها. رأت فيهما كل شيء ما عدا الهدوء.

هل تشعر بعقدة الارتياب بسبب غضبها منه؟ هزّت رأسها ثم نهضت عندما جاءت موظفة الاستقبال لتخبرهم بأن السيارات في الانتظار.

كانت تيريزا مستغرقة في حديث طويل مع خافيار بلغتهما، فالتفتت روز إلى جين، مغتنمة الفرصة، وتمتمت تقول: «لن يكون الأمر محنة كما أتصور، أظن كل شيء سيسير بشكل حسن».

استدارت روز على عقبيها لتجد خافيار واقفاً على مسافة قريبة جداً

منها، بحيث بسطت يدها على صدره بحركة دفاع غريزية: «لم أرك».

شعرت بحرارة جسمه وبخفقان قلبه المنتظم من خلال قميصه الحريري، فأبعدت يدها شاعرة بأن أصابعها تحترق وكأنها لمست جمراً: «ما كان لك أن تزحف نحو الناس بهذا الشكل».

فقال ساخراً وعيناه تلمعان: «أزحف...؟ لم يتهمني أحد قط من قبل بأنني أزحف. أظن أن رئيسك في العمل على حق. فأنت متوترة للغاية وتحتاجين إلى فترة تغيير في حياتك».

فقالت جين: «بالضبط، والآن انزلي مع خافيار إلى المقصف، واسدلي شعرك. فقد أمضيت مدة طويلة وأنت تعملين بجد، روزالين. هيا، انزلي وامرحي وانتبهي أيضاً إلى جيمي وآن من أجلنا؟».

وهكذا وجدت روز نفسها، بعد عشر دقائق، في مدخل نادٍ كثير الضجيج وهّاج الأضواء تحت الأرض، ويد رجل قوية تضغط على ظهرها لتدفعها إلى الأمام: «لا يمكنك، بأية حال، أن تبقي هنا».

رفعت بصرها إلى رفيقها فرأت نظرة هزء باردة في عينيه الداكنتين، فتراجعت غريزياً منفلتة من يده.

ـ آسف. لا أستطيع سماعك.

وبسرعة مدّ يديه وأخذها بين ذراعيه، ثم أحنى رأسه ليقول بالقرب من أذنها: «أظنك تجاوزت مرحلة التسليات البسيطة هذه، روزالين، ولكن يمكننا أن نقوم برقصة واحدة، ثم نطمئن بسرعة على الخطيبين. وهكذا نكون قد أنهينا واجبنا إزاء ذويهم، فنستطيع بعد ذلك مغادرة هذا المكان. اتفقنا؟».

قفز قلبها للدفء الذي كان يتسرب من أنفاسه على أذنها فأومأت بموافقتها لاهثة. ومن سوء حظها أن الفرقة اختارت هذه اللحظة بالذات لتعزف أغنية شعبية. أمسكها خافيار بسرعة، فوضع يداً قوية فوق كتفها. بينما طوّق خصرها بيده الثانية وراح يحركها على أنغام الموسيقى التي أخذت تثير في كيانها أحاسيس حاولت جهدها تجاهلها.

تصاعد توترها. عليها أن تبتعد الآن... بهذا حدّثها المنطق. خافيار فالدزبينو رجل بالغ الخطورة. لكنها لم تفعل فخافيار قد جرحها بمضمون كلامه حين قال إنها أكبر سناً من أن تستمتع بالرقص في هذا المكان.

وهكذا، عندما تغيرت الموسيقى، قال بصوت أجش وعيناه تتراقصان: «هل تجيدين رقص السالسا؟».

وبغباء أجابت: «نعم».

ظنت أنه سيبدو أحمق، فقد كان أكبر من أي رجل في القاعة. لكنه، بدلاً من ذلك، بدا وكأنه أمنية كل امرأة.

راح جسم خافيار الكبير يتحرك برشاقة مثيرة. وأدركت روز، بسخرية، أن الاختلاف بين شخصية هذا الرجل المتحفظة المسيطرة وقوة إرادته، وبين ملامح الرجولة غير العادية التي تنضح منه، جعل كل امرأة في المكان تكتسحه بنظرات جانبية تخلو من الذوق.

لم تعرف روز أهي أجواء الموسيقى الصاخبة أم الإحباط الغاضب الذي كان يجيش في نفسها منذ لقائها بهذا الرجل، ما جعلها تشعر بإغراء لم تستطع مقاومته. وهكذا راحت ترقص معه على سجيتها.

وعندما توقفت الموسيقى شدها خافيار إليه فضاع صوابها. ورأت رأسه ينحني. هل سيعانقها؟ لكنه انتصب في وقفته ويداه القويتان حول كتفيها، ثم تراجع بشكل عفوي. ثم أخذت نظراته تكتسحها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، بملامح شاردة باردة...

***

٣ ـ ملاك، ونظرات شيطانية

تملك روز الاضطراب وأخذت تحدق في وجهه وقد دار رأسها.

ـ شكراً. أنت ترقصين بشكل جيد.

قال هذا بتهذيب متكلف وقد نزلت يداه عن كتفيها.

ـ شكراً لك.

تمتمت بذلك وقد التهب وجهها ارتباكاً. ماذا يحدث لها؟ هل بلغ بها الغباء حداً ظنت معه أن رجلاً مثل خافيار فالدزبينو قد يعانقها في حلبة الرقص المزدحمة؟ هل أخذت إجازة من عقلها أم ماذا؟ أشاحت بوجهها وتراجعت خطوة إلى الخلف: «شكراً لك».

كان هذا كل ما استطاعت التفكير فيه، فهذه هي الحقيقة. عليها أن تكون حذرة، فهذا الرجل يملك كل المؤهلات التي تجعل المرأة تشعر بمشاعر جارفة.

ـ تعالي. أظنتا قمنا بواجبنا. الخطيبان بأحسن حال ويمكنهما رعاية بعضهما البعض.

أمسك بذراعها يقودها إلى المخرج ثم صعدا السلالم إلى البهو الهادىء نسبياً. سارت روز معه من دون أن تعترض، بسبب اضطراب مشاعرها.

طلب خافيار كوبين من عصير الليمون، ثم دعا روز إلى الجلوس على أريكة، قائلاً: «كثرة الطعام والرقص من المحتمل أن تصيبنا بالإجهاد».

ثم جلس بقربها على الأريكة. التفتت إليه مرغمة نفسها على مواجهة عينيه: «أنت محق في هذا».

أحست بالضيق بسبب شعورها بالحرّ، كما أن شعرها أخذ ينفلت ليصبح خصلات مشوشة. بينما بدا خافيار هادئاً منضبطاً بشكل ملحوظ.

ثم أخذ يتأملها من تحت جفنيه الثقيلين: «طبيبة إنكليزية أصيلة ترقص كبنات اللاتين!».

وابتسم وهو يرفع حاجبيه بذهول ساخر: «أخبريني بسرك. أين تعلمت رقصة السالسا؟».

بدا سؤاله عادياً. فتمسكت روز بهذه الفرصة لتبدأ حديثاً طبيعياً، آملة أن يخفف ذلك من التوتر الذي تملكها طوال الساعة الماضية. وأنبأتها ملامح خافيار المتغطرسة الشاردة أنه لا يعاني من هذه المحنة مثلها.

ـ في أفريقيا.

أجابته بذلك بصدق ثم سكتت لحظة، فجعلت الذكريات السعيدة عينيها الخضراوين تتألقان بذكريات الماضي الحافلة بالمرح.

ـ دومينيك، وهو عالم آثار من الأرجنتين، جاء إلى مستشفانا في الصومال. كان مسافراً بمفرده كما يبدو، وتعرض للسلب. لكن الحظ حالفه فنجا بحياته. بدون نقود ولا ملابس، بعين سوداء وجمجمة مشروخة. ولكن من الغريب أنه استطاع أن يحتفظ بشريط موسيقى السالسا. راح يسمعنا ذلك الشريط في المسكن، ليلاً ونهاراً. وعندما حان وقت رحيله بعد ذلك بثلاثة أشهر، كنت قد تعلمت رقصة السالسا، وكذلك التانغو والسامبا.

وابتسمت روز. لقد هدأ توترها بعد تناول كوب العصير. وكان الليل قد شارف على نهايته تقريباً. وكان خافيار قد طلب سيارة أجرة حين طلب الشراب. وأصبح بإمكانها أن تكون ودوداً وتتخلى عن حذرها.

لم يكن لديها فكرة عن الإغراء الذي يشعر به الرجل الذي يجلس معها. فقد كان ينظر إليها بعينين سوداوين لامعتين وقد أطبق أسنانه بإحكام. كانت خصلات شعرها الأحمر تحيط بوجهها البيضاوي. وقد انزلقت فتحة عنق ثوبها الأخضر قليلاً. وبدا جسمها مثيراً وهي تضع ساقيها الطويلتين

الواحدة فوق الأخرى، لكن روز لم تكن واعية لذلك على الإطلاق.

ـ لقد عاد إلى البرازيل. سمعت مؤخراً أنه يزور جبال «الأنديز» ليبحث عن مقبرة مقدسة.

أضافت روز ذلك ولمحة من الحزن تظلل عينيها الخضراوين الرائعتين. كان دومينيك قد أغرم بها وحاول إغراءها في إحدى الليالي. وكادت غلطته تلك تفسد صداقة رائعة بينهما.

ـ قال خافيار ساخراً: «يبدو أن المقبرة هي أحسن مكان له».

فسألته بدهشة: «لمَ تقول ذلك؟ إنه رجل لطيف رقيق، لو أنك عرفته لأحببته حتماً».

بعد أن قالت هذا أدركت أنه صحيح تماماً. فدومينيك هو رجل من نوع خافيار، لكنه لا يملك نزعة خافيار إلى القسوة. وأدركت فجأة أن هذا هو السبب الذي جعلها تختاره كصديق مميز لها طوال العشر سنوات الماضية. فقد ذكرها بخافيار. وقد أدرك دومينيك، حقيقة أنها لم تكن مغرمة به فانسحب من حياتها.

ـ إذا كان هذا رأيك...

قال هذا مبتسماً بجفاء وهو يومىء إلى شخص ما خلفها، ثم يقف: «يبدو أن سيارتنا وصلت».

ومدّ يده إليها يساعدها على الوقوف. وقد بدا في هيئته، في عينيه اللامعتين، شيء منعها من مجادلته. فوضعت يدها في يده. لم يكن مضطراً إلى أن يرفعها لتقف بمثل هذا العنف، كما أخذت تفكر، بعد أن كادت تقع على وجهها عاثرة بكعب حذائها العالي هذا. لكنه، بنظرة استخفاف إلى وجهها الجميل، شدّد قبضته على يدها ودفعها خلال ردهة الإستقبال، ومن ثم إلى الخارج حيث جوّ الليل البارد.

ـ لم هذه السرعة؟

لم تستطع أن تمنع نفسها من طرح هذا السؤال. سرت في ظهرها رجفة خفيفة، ولم تعلم ما إذا كان ذلك بسبب برودة الليل أم بسبب يده الضخمة

التي كانت تقبض على يدها.

ترك يدها قائلاً ببرودة: «إصعدي إلى السيارة. كان يوماً مجهداً والليل لم يكن أفضل حالاً. لقد نلت هذه المرة، ما فيه الكفاية، ويسرني أن أعود إلى الوطن غداً معك ومع جيمي وآن طبعاً».

لماذا تشعر وكأن الجملة الأخيرة قد دُست وكأنها فكرة متأخرة؟ عبست وهي تصعد إلى السيارة. جاء خافيار فالدزبينو إلى يوركشاير ليقوم بواجب أسري، وقد أدى دوره بشكل رقيق محنك ساحر. وهو الآن متلهف للعودة إلى بلده، فليس في هذا ما يقلقها. ستمضي أسبوعاً في إسبانيا مع جيمي وآن، ولا شك أن خافيار فالدزبينو سيكون مضيفاً ممتازاً. أما خوفها من أن يتذكر تلك الفتاة الغبية التي كان تعرف إليها منذ عشر سنوات، فلا داعي له على الإطلاق.

بعد وصولهما إلى البيت رفضت دعوة خافيار المختصرة إلى فنجان القهوة الليلي، وذهبت إلى غرفتها مباشرة. كانت ما تزال مستيقظة تماماً.

لا فائدة فهي ستبقى مستيقظة. وبآهة مهزومة، فتحت عينيها وتركت ذاكرتها تعود إلى الماضي. إذا هي واجهت شياطينها، أو بالأحرى شيطانها... خافيار، ربما تتمكن أخيراً من النوم.

***

دخلت عارضة الأزياء على وقع الموسيقى رافعة الرأس متئدة الخطوات. ترفل في ثوب من الحرير، مكشوف الظهر مربوط عند كتفيها بحمالتين رفيعتين، لا تكادان تقويان على حمل القسم الأعلى منه. أما تنورته قصيرة فتكشف عن معظم ساقيها.

بدا وجهها الرائع خالياً من أي تعبير. وشعرها الأحمر قصير قومت تجاعيده بقسوة، كما كُحّلت عيناها بشكل مبالغ فيه، وقد بدت نظراتها شاردة...

في السادسة عشرة من عمرها لفتت الأنظار أثناء عرض للأزياء أقيم في بيرمنغهام، فعرض عليها أن تعمل كعارضة أزياء. كان طولها مئة وثلاثة

وسبعين سنتيمتراً، جسمها نحيف يتحلى بالرشاقة، وهذا ما كانت تبحث عنه وكالة عرض الأزياء.

ناقشها والداها في الأمر، وهما طبيبان، ثم وافقا أخيراً على ذلك، على أن تعمل فقط أثناء العطل المدرسية. وكان اسمها الحرفي «مايلين» وهو مأخوذ من اسمها الكامل «روزالين ماي» وقد أشار عليها بذلك والداها. فهي تريد أن تكمل تعليمها لتصبح طبيبة، لذا من الأفضل ألا تستعمل اسمها الحقيقي.

شملت مايلين المتفرجين حولها بنظراتها، غافلة عن التصفيق الحماسي الذي قوبلت به. كان قلبها مليئاً بالحزن لقرب رحيلها إلى الوطن، بعد مأساة مقتل والديها في حادث تحطم طائرة في وسط أفريقيا منذ أكثر من عام فيما هما يقومان بمهمة إنسانية هناك. وجدت روز بعد ذلك نفسها وحيدة مع بيغي التي كانت ترعاها منذ كانت في الثانية من عمرها. وبعد مناقشة الأمر مع خالها وزوجته، وهما كل ما بقي لها في العالم من أقارب، استقر الأمر على أن تسكن روز مع بيغي في بيت الأسرة في لندن إلى أن تنهي امتحاناتها.

وقد أنهتها بنجاح الصيف الماضي رغم الحزن الذي حل بها وكما تم قبولها في جامعة لندن لدراسة الطب. لكنها قررت إرجاء دراسة الطب مدة عام، ستزاول خلالها مهنة عرض الأزياء. وهكذا تجمع مبلغاً من المال تنفقه على نفسها ودراستها في كلية الطب.

خلال عيد الميلاد الأخير، أعلنت بيغي أنها ستتزوج خلال أشهر، وهكذا عرضت روز بيت الأسرة الكبير للبيع ثم قررت أن تشتري شقة على بعد شارعين منه. من سخرية القدر أن فقدها والديها نتج عنه فقدها الكثير من وزنها وهذا كان مناسباً تماماً لمهنتها عارضة أزياء. وهكذا لم يعد المال مشكلة بالنسبة إليها.

وها هي الآن في برشلونة في حفلة عرض أزياء خيرية بالإشتراك مع جائزة إسبانيا الكبرى في شهر أيار. تمنت روز لو أنها الآن في إنكلترا لتحتفل

بعيد ميلادها مع خالها وزوجته. فاليوم هو عيد ميلادها التاسع عشر. نظرت حولها إلى المتفرجين، فشعرت كأنها في التسعين. لكنها أخذت تعزي نفسها أن هذا الحفل لن يدوم طويلاً.

وصلت مايلين، عارضة الأزياء، إلى آخر ممر العرض الضيق ثم استدارت لتعود أدراجها. فانثنى الثوب الحريري الرمادي اللون والضئيل الحجم، حول جسمها بإغراء. وإذا بفكرة غادرة تخطر لها وهي أن ليس ثمة امرأة تتمتع بعقل سليم تحب أن تسير بين الناس مرتدية هذا الثوب. على كل حال، ستتوقف بعد غد عن ممارسة هذه المهنة، لن يراها أحد، بهذا الشكل بعد الآن.

وابتسمت لهذه الفكرة من دون وعي. الأسبوع القادم سيكون لديها شقة جديدة وإجازة طويلة، وفي أيلول ستعود إلى حياتها كطالبة مرة أخرى.

عادت تسير الهوينا نحو خشبة العرض وإذا بشعيرة إثارة تتملكها وهي ترى فجأة رجلاً طويلاً جذاباً يقف في أحد جوانب الصالة وعيناه مسمرتان على عينيها.

كانت هاتان العينان تتألقان بعنف، كما التوت شفتاه بابتسامة خطيرة.

آه، يا لجهنم. لقد ظنها تبتسم له! كانت مايلين قد لمحته أثناء العرض أمس وبالكاد تمكنت من إبعاد نظراتها عنه. وبعد انتهاء العرض دخل خلف الكواليس وتحدث إليها: «مايلين. أنا متلهف إلى لقائك. كنت متألقة الليلة».

بغطرسة الشباب وذكائه، تجنبت مايلين كل الأشراك التي كانت توقع بعارضات الأزياء الأخريات. فهي لا تدخن، كما أنها لم تقابل بعد ذلك الرجل الذي يستطيع أن يغريها بالخروج معه. لكن نظرة واحدة إلى هذا الغريب الأسمر جعلتها تضيع في عينيه. شعرت بالحرارة تسري في دمها وتصاعد الإحمرار إلى وجهها. لم تستطع أن تحوّل نظراتها عنه. وفي تلك اللحظة، كل مبادئها السابقة عن الحب والأخلاق تبددت في هبة من الدخان. تعالى صوت في أعماقها ينبهها بأن هذا الرجل خطر. لكنها

تجاهلت ذلك الصوت، وابتسمت له. كان طوله يفوق الستة أقدام. وقالت بصوت عاطفي أجش: «شكراً».

قدم إليها الرجل سيجارة وعندما رفضتها، قال لها إن بإمكانه أن يقدم إليها شيئاً أقوى. كانت تعلم أن المخدرات تكثر في عالم عرض الأزياء، ولكن لم يكن لها هي صلة بذلك، فشعرت بالمرارة ظناً منها أنه من تجار المخدرات. فما كان منها إلا أن صفعته على وجهه وابتعدت عنه... وإذ تذكرت أين هي الآن وما عليها أن تقوم به، حوّلت نظراتها عن ذلك الشيطان الوسيم ثم أكملت العرض.

صرخ مصمم الأزياء الإسباني فيها بغضب بالغ لما عادت إلى خلف مسرح العرض: «ما كان عليك أن تبتسمي. كما أظنك بدأت تسمنين».

نظرت مايلين إلى الرجل الأسمر المخنث الصغير الجسم، وعادت تبتسم. من عادة مصممي الأزياء أن يقولوا لعارضات الأزياء كذباً، إنهن يسمنّ، وذلك لمجرد تنبيههن إلى ضرورة الحفاظ على رشاقة قوامهن.

لكن ذلك لم يعد يهمها، فقالت ضاحكة: «آسفة، يا سيرجيو، لم أستطع منع نفسي».

ـ أنت صعبة جداً يا مايلين. جميلة لكنك صعبة. حاولي أن تفعلي ما يقال لك ولو مرة في حياتك. إبقي هذا الثوب على جسمك واختلطي بالناس. الحفلة أوشكت أن تبدأ، وكل أبناءالطبقة الراقية في إسبانيا سيحضرون الحفلة وكذلك أشهر سائقي سيارات السباق في العالم ومن يساندهم.

فتأوهت: «هل أنا مضطرة لذلك؟».

ـ نعم، إذا شئت أن تحصلي على أجرك.

تناولت كأس صودا، ثم شقّت طريقها بين الجموع. أخذت تجيب على نداءات باسمها لا تحصى بابتسامة مختصرة وإيماءات. وأخيراً وجدت ما كانت تبحث عنه. زاوية هادئة خلف نخلة كبيرة مغروسة في إناء.

استندت مايلين إلى الجدار، وأخرجت إحدى قدميها من فردة حذائها

ذات الكعب العالي إلى درجة سخيفة، ثم تنهدت بارتياح. إذا ساعدها الحظ، يمكنها أن تهرب خلال دقيقة إلى فندقها. لم تشأ أن تشرب الصودا، فنظرت حولها بحذر ثم أفرغت كأسها في آنية النخلة.

ـ يا للقسوة. لقد قضيت على نبتة بريئة بنفس السهولة التي قضيت بها على أملي أمس.

ألقت الكأس في الآنية، ثم التفتت مذهولة لترى في الناحية الأخرى من النخلة ذلك الرجل الطويل الأسمر الذي لفت انتباهها في قاعة العرض.

احمر وجهها حتى جذور شعرها: «لم أكن أعني... لم أكن...».

تلعثمت وتسارعت خفقات قلبها وهي تنظر إليه. بدا أكثر جاذبية مما تتذكر. فكرت مايلين مفتونة أن وجهه كالملاك، فقد بدا وسيماً بشكل لا يصدق، بلونه الأسمر الذي يميز سكان حوض البحر المتوسط، وحاجبيه الأسودين القاتمين اللذين يلمعان ببريق ذهبي. لم يكن أنفه مستقيماً تماماً فقد بدا منخراه متسعين قليلاً، ووجنتاه عاليتين، بالإضافة إلى فم جميل واسع. بدت جاذبيته كاسحة ومدمرة. ومع أن مايلين طويلة القامة، إلا أنه كان يفوقها بأكثر من عشرين سنتيمتراً، وقد بدت كتفاه عريضتين قويتي العضلات. كان يرتدي قميصاً من القطن الناعم، وحزاماً جلدياً مزخرفاً منخفضاً حتى وركيه يشدّ بنطلوناً بلون القشدة.

بدت ملابسه عفوية، لكن مايلين لاحظت أنها من أفخر أنواع الملابس إذ كان توقيع المصمم واضحاً عليها.

استند الرجل إلى الجدار بجانبها: «أنا أمزح معك فقط، يا مايلين. وكل ما أريده هو إزالة سوء التفاهم بيننا. أنا لا أتعامل بالمخدرات كما أظنك تصورتني بالأمس. أردت التأكد فقط أنك لا تتعاطين المخدرات. لأن رأيي في عارضات الأزياء ليس حسناً، وأنا أعتذر».

وصدقته مايلين. وفي مقابلتها الثانية له بدا لها أرفع شأناً من أن يكون تاجر مخدرات.

ـ أطمئنك إلى أنني أقوم بعمل شريف لأكسب عيشي. وأنا أريد أن

أتحدث إليك مرة أخرى من دون أن أنال صفعة.

وابتسم لها، ونسيت مايلين كل ما تملكها من شكوك حول الرجل.

لقد أسرها تماماً بجماله الأسمر. تملكتها موجة من الإرتياح، وشعرت بقشعريرة من الإثارة، ما جعلها تقول بابتسامة رائعة: «ما دام الأمر كذلك، لا بأس».

قالت هذا بوقاحة، فقال ببطء: «حسناً، لدي أيضاً فكرة أخرى في ذهني».

انتابها إحساس حقيقي بخيبة الأمل. فانتصبت مايلين في وقفتها، ثم عادت تدخل قدمها في فردة حذائها. لم تعد تتذكر عدد الرجال الوسيمين الذين حاولوا إغراءها خلال العام المنصرم. وأملت أن يكون هذا الرجل مختلفاً. لكن الأمر لا يبدو كذلك.

فقالت بهدوء: «لقد اخترت الفتاة غير المناسبة».

وهمت بالابتعاد. أمسك الرجل بيديها: «لا، كنت أعني فقط أنني لم آكل جيداً هذا المساء. وسيشرفني أن تتناولي العشاء معي».

ـ أنا لا أعرف حتى إسمك.

لكن الإغراء تملكها لأن تلبي دعوته. أصابعه التي كانت تمسك بذراعها أرسلت شعوراً بالشوق في كل كيانها. شعور لم تكن تعرف مثله في حياتها. عيناه القاتمتان المليئتان بالحيوية كانتا تخترقان قناع عارضة الأزياء الذي تضعه لتصلا إلى الفتاة وراءه.

وشعرت مايلين بميل إلى تصديق كلامه. رفع حاجبيه ساخراً: «بل أظنك تعلمين من...».

وسكت في منتصف الجملة وعيناه تضيقان وهو ينظر إلى وجهها. يبدو أن ما قرأه في ذلك الوجه الفتيّ الصريح جعله يغير رأيه: «إسمحي لي أن أعرفك بنفسي. خافيار فالدزبينو. أنا في التاسعة والعشرين من عمري، وأنا إسباني أعزب من مدينة سيفيل. أقيم حالياً في برشلونة لكي أحضر السباق».

صوته العميق الرخيم ذو اللكنة الخفيفة دغدغ مشاعر مايلين. وفكرت

أن يضيف إلى أوصافه أنه يملك جسداً رائعاً. وفي تلك اللحظة قررت أن تلقي بالحذر مع الريح وتقبل دعوته. وعلى كل حال، إنه عيد ميلادها...

مدّت إليه يدها تقدم نفسها: «مايلين. أنا في التاسعة عشرة، وأنا إنكليزية عزباء أيضاً، وأنا في برشلونة لأجل عرض الأزياء».

قلدت طريقته في التعارف وقد انفرجت شفتاها عن أسنانها اللؤلؤية بابتسامة ارتياح.

ـ هل هذا يعني أنك ستتعشين معي؟

كانت يدها لا تزال ممسكة بذراعها. وفي تلك اللحظة أنزلها لكي يطوّق بها خصرها. شعرت مايلين بصدمة كهربائية تهز كيانها، لكن عينيه اللتين كانتا تضحكان لها أعمتاها عن الخطر.

ـ نعم.

قالت هذا وقد سمرّتها روعة ابتسامته. فقال وهو يستعجلها للخروج من الغرفة: «سأتذكرك دوماً كلما نظرت إلى شجرة نخيل مغروسة في آنية».

ـ قُدّمت إليّ مجاملات أفضل.

قالت هذا ضاحكة وهي ترفع بصرها إليه من خلال أهدابها الكثيفة. فقال بجدية تامة: «ولكن ليس بهذا الصدق، أؤكد لك».

والتقت عيونهما، خضراء بريئة وبنية دنيوية. وللحظة، بدا كأن الحشد والضجيج قد تلاشيا وأن الزمن قد توقف.

رفع إصبعه ومررها على ذقنها ورجنتها: «مايلين. إسم جميل لفتاة جميلة».

خفق قلبها واكتسحتها موجة من السخونة صعقت لها، لكن النظرة التي ظهرت في عينيه جمّدتها وأشعرتها بشيء من الخوف. لم تعرف ما الذي يحدث لها ما عدا أنه هام وخطير. فتحت فمها لتقول شيئاً علها تخفف من التوتر الذي أحاط بهما، لكنه وضع إصبعه على فمها بحزم: «لا، لا تقولي شيئاً، لا حاجة بك لذلك».

واكتسحت نظراته الذهبية جسدها الفتي فتسارعت خفقات قلبها،

وأخذت تلهث وهي تنظر إليه بعجز، فعاد يقول: «أعرف ما تريدين قوله».

ووضع يده حول خصرها النحيف، فجذبها إليه وعيناه تحترقان فأدركت مايلين أنه سيعانقها. لكن رجلاً نادى خافيار وخاطبه بلغته. مال برأسه المتغطرس نحو الرجل الآخر وأسرع يجيبه بابتسامة.

ثم أخذ يدفعها خلال الحشد. كان العديد من الأشخاص يوقفونه أو يحيونه فيجيب التحية بتهذيب. لكن مايلين لم تفهم معظم ما كان يقال من تعابير. لأن أكثرها كان بالإسبانية. عندما وصل إلى باب الخروج، تذكرت أين هي وماذا ترتدي.

ـ انتظر، علي أن أبدل ملابسي.

ـ أنت رائعة بهذا الثوب.

قال هذا بصوت أجش قرب أذنها.

ـ لكنه ليس ثوبي.

وانفلتت من قبضته وتنفست بعمق. وإذا بسيرجيو يظهر فجأة إلى جانبها: «ها أنت ذي يا مايلين. أظنني طلبت منك أن تختلطي بالحشود. أريد أن يرى الناس هذا الثوب. هل هذا كثير عليك؟ لديّ أمل كبير في أن أبيع بعض أزيائي في السوق. ولهذا إختلطي بالناس يا عزيزتي لأجل الله».

عاد خافيار يحيط خصرها بذراعه وهو يلقي على سيرجيو نظرة قاسية: «ألا ترى أنها معي؟ أما بالنسبة إلى الثوب، أرسل إليّ فاتورته، فأنا سآخذ مايلين إلى العشاء».

ـ لا. إنتظر لحظة.

لم يحدث من قبل أن اشترى رجل لها ملابس، وخصوصاً رجل لا تكاد تعرفه. مع أن هذا الرجل فتنها، لكنها ليست معتوهة تماماً. أوشك سيرجيو أن يرفعها إلى خارج الباب: «لم أدرك أنك مع السينور ڤالرزينيو، يا عزيزتي. إحتفظي بالثوب واذهبي، إذهبي، إذهبي، إستمتعي بالعشاء ولا تنسي أن هناك عرضاً خاصاً للأسرة المالكة. غداً عند الظهر».

ثم التفت إلى خافيار: «أنا بحاجة إليها عند الساعة الثانية عشرة من

ظهر الغد».

وقبل أن تدرك ما يحدث لها، كانت مايلين قد أصبحت في سيارة رياضية سوداء فخمة. جلس خافيار خلف المقود، وراحت السيارة تسرع بهما في شوارع برشلونة. وأخيراً، وجدت صوتها: «أنا أعني ما قلته بالنسبة إلى تغيير ملابسي، لا أريد أن أظهر بين الناس في هذا الثوب. هذا ليس طرازي على الإطلاق».

ألقى نظرة جانبية على وجهها المتمرّد، والضحك في عينيه: «ليس ثمة مشكلة. لديّ حلّ ممتاز. سنأكل في بيتي».

ـ ولكن... ولكن...

أخذت تغمغم مضطربة ولم تعد تجد الكلمات المناسبة، لا يمكنها أن تعترض بعد أن أعلنت أنها لا تريد أن تبدو بين الناس في هذا الثوب اللعين.

أمسك يدها بيده العريضة: «لا تقلقي، يا مايلين. أنت آمنة معي. أعدك بذلك».

***

تململت روز على سريرها بعدم إرتياح، إنه أول وعود خافيار لها منذ عشر سنوات. وكان زائفاً بقدر الوعود التي تبعته. وأدركت، بعد فوات الأوان أن خافيار أدركها في النقطة الفاصلة في تغيير حياتها، بعد أكثر من سنة من الحزن على والديها والعمل بشكل آلي. كانت قد أوشكت على الشفاء من أحزانها. فقد بيع بيت الأسرة، وهي في سبيل شراء شقة خاصة بها. فمربيتها بيغي ستتركها لتتزوج. وروز أصبحت جاهزة لدخول عالم الراشدين، ومغادرة عالم الأزياء. كانت تتطلع إلى دخول الجامعة لدراسة المهنة التي تريدها حقاً. وهكذا سارت تلك الليلة على خشبة العرض الضيقة مليئة بالثقة. ولأول مرة منذ أكثر من عام، ارتسمت على شفتيها ابتسامة عفوية. وكانت تلك غلطتها الكبرى.

أخذت تتأمل خيوط الفجر وهي تبزغ عبر سماء الليل. تأوهت وهي

تتقلب في سريرها ودفنت وجهها في الوسادة، محاولة أن تمتنع عن استعادة تلك الذكرى، لكنها لم تفلح. فذكريات تلك الليلة ظلت تعاود أحلامها لسنوات، وفي الحقيقة، لقد أثرت على نظرتها إلى كل الرجال منذ ذلك الحين. فهي لم تتمكن من نسيانها لتتابع حياتها بشكل عادي إلا بعد وقت طويل. إنها، في النهاية، تريد زوجاً وأسرة لنفسها. فهل تدع ذكريات الليلة الغبية تفسد حياتها إلى الأبد؟ حتى إن خافيار الذي سبّب لها تلك الصدمة لم يتذكرها. وحدثت نفسها تخفف عنها أن عليها مواجهة الأمر... فهو بالتأكيد ليس رجلاً صالحاً.

***

٤ ـ النصف الآخر

وقفت مايلين وسط الغرفة الواسعة وهي تتساءل عما تفعله هنا. كانت الأرض من الخشب المصقول أما النافذة فقد امتدت على طول الجدار، وقد بدا من خلفها مشهد ليلي مذهل لبرشلونة. نظرت حولها فرأت أن الغرفة لا تحتوي إلا على قطع قليلة من الأثاث؛ أريكتان ناصعتا البياض ومنضدة سوداء، بالإضافة إلى مدفأة رخامية أنيقة، وضعت على الرف الذي يعلوها صورة داخل إطار فضي. اقتربت منها ونظرت إلى الصورة. بدا خافيار فيها مشبكاً بذراع رجل آخر وقد وقفت بينهما فتاة جميلة سوداء الشعر. كانوا جميعاً يضحكون، أما الفتاة فكانت تضع خاتماً كبيراً في إصبعها.

قالت وقد وجدت موضوعاً للحديث: «هل هما من أصدقائك؟».

فأجاب خافيار باسماً: «نعم، صديقان طيبان».

ـ بيتك جميل.

وزادتها ابتسامته توتراً.

ـ أتظنين ذلك؟

نظر في أنحاء الغرفة من دون حماسة، ثم عادت نظراته لتستقر على قوامها المتوتر. رأى نظراتها الحذرة فقال: «لا تخافي فأنا لا أنوي إيذاءك».

ثم أمسكها بذراعها وأدارها إليه: «أنا دعوتك إلى العشاء وهذا كل شيء».

ـ هل يمكنك أن تطبخ؟

سألته بارتياب، مستعيدة مظهر الحنكة الزائف الذي تعلمته من خلال عملها في عرض الأزياء، وهي تحاول في الوقت نفسه أن تتجاهل قربه البالغ منها، وتسارع دقات قلبها.

ـ طبعاً، فأنا رجل متعدد المواهب.

هزّ كتفيه وبسط يديه ما جعل تأثيره عليها يتضاعف.

ـ أنا أصدقك.

ونظرت إلى قامته الطويلة وثارت مخيلتها وهي تتصور مواهبه الأخرى.

سألها وابتسامة راضية تلوي فمه الواسع: «ما رأيك في عجة إسبانية حقيقية مع السلطة؟».

ـ جميل جداً. شكراً.

فانفجر ضاحكاً: «أنت لا تقدرين بثمن، يا مايلين».

ونظرت عيناه الباسمتان في عينيها، ثم أمسك بذراعها وقادها إلى المطبخ: «هيا بنا، يمكنك أن تعدّي السلطة».

أثناء ربع الساعة التالية، أخذا يعملان معاً سعيدين. وحبست مايلين أنفاسها فيما هما يتحركان معاً في تلك المساحة الضيقة، إلا أنها لم تظهر ردة فعلها. ولكن فيما بعد، فاجأها شعور بالحزن وهي تجلس أمامه حول المائدة الصغيرة وطبق الطعام أمامها... لم يسبق لها قط أن كانت وحدها مع رجل في شقته، وصدمتها هذه الفكرة تماماً. إنها مع رجل غريب في بلاد غريبة. لم تتصرف بهذا الطيش قط من قبل.

راحت عيناه السوداوان تتفحصان بكسل ثوب الحرير الناعم الذي يغطي جسمها. فشبكت ذراعيها على صدرها بخجل، وقد شعرت بالصدمة لأن نظرة واحدة منه جعلتها تتأثر بهذا الشكل. مد خافيار يده عبر المائدة وأمسك بيدها.

ـ لا، يا مايلين، لا تخجلي.

واحمر وجهها كعذراء من العهد الفيكتوري. بينما ألقى خافيار برأسه إلى الخلف وانفجر مقهقهاً: «يا للبراءة! أنا لا أصدق هذا. لكنك أنت على

صواب بالنسبة لهذا الثوب، مايلين. إنه لا يناسبك على الإطلاق. والآن أنهي طعامك قبل أن يبرد».

أكلت لقمتين ثم دفعت بقية الطعام بشوكتها بعيداً. لم تجرؤ على النظر إليه، لأنها خشيت أن تحبس أنفاسها إذا فعلت ذلك.

سألها باهتمام: «ماذا حدث يا مايلين؟ ألم تعجبك العجة؟».

رفعت رأسها بسرعة وحاولت أن تبتسم: «بل هي لذيذة، ولكن يبدو أنني فقدت شهيتي».

ـ أنت عارضة أزياء وأعرف أنك تودين الحفاظ على قوامك. لكنك أيضاً فتاة رائعة الجمال ومن الإجرام إفساد الجمال الكامل بالرغبة الحمقاء في تنحيف الجسم. والآن كلي!

قال هذا بحزم، فعادت لمتابعة الطعام.

أراح أفكارها عندما انطلق في الحديث عن حبه للسيارات، وعرفت أنه يعمل في حلبة السباق. وسرعان ما راحا يثرثران كصديقين قديمين.

ونسيت أن اليوم عيد ميلادها. نسيت كل شيء ما عدا جاذبية هذا الرجل الساحقة ولكنها شعرت أن ما بينهما هو أكثر من مجرد جاذبية. تحدثا عن كل شيء ولا شيء، وأخبرها أنه لم يجلس قط من قبل لمدة ساعتين على كرسي المطبخ الصلبة كما جلس الآن، مقترحاً عليها أن ينتقلا إلى غرفة الجلوس.

استرخت مايلين بجانبه على الأريكة المخملية في غرفة الجلوس، وأخذا يشربان القهوة التي صنعها بيده. ألقت نظرة جانبية طويلة على جانب وجهه الوسيم، وفجأة ظهر عليها الارتباك وتصاعد الاحمرار إلى وجنتيها. لقد انتهى العشاء وكذلك القهوة تقريباً، وقد حان الوقت لتخرج، أما خافيار فقد تصرف كرجل مهذب طيلة الوقت تماماً. بينما كانت هي تعاني من اضطراب مشاعرها نحوه.

لم تعرف ما الذي جرى لها. لقد تعرفت إلى عشرات الرجال الوسيمين أثناء حياتها العملية، ولكن لم يتمكن أي منهم من التأثير فيها كما أثر فيها

خافيار.

كان يجلس باسترخاء بجانبها على الأريكة، وساقاه الطويلتان ممدودتان أمامه بعدم اكتراث. فبدا مرتاحاً بالغ الجاذبية.

ورفعت بصرها بسرعة. لكن ذلك لم يكن أفضل كثيراً، فقد استقرت نظراتها على أعلى صدره، وكانت أزرار قميصه العليا مفتوحة، فقفزت واقفة، ثم قالت بصوت أجش وهي تحاول أن تسوّي من حاشية ثوبها: «الأفضل أن أخرج الآن، فقد تأخر الوقت وعليّ أن أعمل غداً».

وغامرت بإلقاء نظرة عليه فذهلت لرؤية النار الذهبية المتقدة في عينيه. مد خافيار يده وأمسك بيدها، وقبل أن تدرك ما يحدث، كان قد جذبها نحوه:

ـ ألن تمنحيني عناقاً قبل الوداع؟

ـ أرجوك، أنت ستتلف الثوب.

قالت أول فكرة خطرت ببالها: «عليّ أن أعيد الثوب سليماً».

أدركت أنها تتحدث بحماقة، لكنه قال وذراعه تلتف حول خصرها بحزم، بينما تمسك يده الأخرى بكتفها ما جعلها تشعر أنها أشبه بقطيطة عاجزة.

ـ اعتبريه هدية لك.

واقترب منها أكثر، فاكتسحت جسدها أحاسيس غريبة جعلتها تشعر بما يشبه الخدر.

ـ لا أستطيع أن أقبل.

ولم تعرف مايلين هل قصدت بحديثها الثوب أم العناق. فقال لها وعيناه اللامعتان تتفحصان وجهها ببطء: «إعتبريه هدية عيد ميلادك يا حلوتي مايلين».

منحته ابتسامة متألقة، ومالت قليلاً مبتعدة عنه: «وكيف عرفت أن اليوم هو عيد ميلادي؟».

سألته ذلك وهي تحاول أن تخفي ارتباكها. ضحك لقولها: «لم أكن

أعرف، لكننا متناغمان مع بعضنا البعض إلى حد يبدو أن بيننا حاسة سادسة».

ثم احتضنها بذراعيه بشدة: «عيد ميلاد سعيد يا جميلتي. ولكن لماذا لم تخبريني؟ العجة ليست احتفالاً لائقاً لهذه المناسبة. لو كنت أعلم لاصطحبتك إلى مطعم لتناول العشاء. ولكن ماذا بالنسبة إلى والديك وأصدقائك؟ ألا يرغبون في مشاركتك عيدك؟».

امتلأت عينا مايلين بالدموع. إنه حقاً رجل طيب يهتم بالآخرين: «مات والداي منذ سنة ونصف تقريباً».

ـ آه، يا للمسكينة.

وهذه المرة عانقها عناقاً عذباً طويلاً... حمل لها العطف والمؤاساة.

لم تعرف مايلين ماذا جرى لها. في لحظة شعرت بالأمان والسلوان بين ذراعيه، وفي اللحظة التالية وجدت نفسها في دوّامة من الأحاسيس لم تفهمها تماماً.

شعرت وكأن أحداً لم يعانقها قط من قبل. فقد استجابت غريزياً وكأنها انتظرت هذه اللحظة طوال حياتها، وارتجفت لقوة مشاعرها.

وبرقة، انزلقت يده إلى كتفها، ومال برأسه إلى الخلف يحدق إليها: «أنت رائعة مايلين، ليتك تبقين معي. فنحن متناسبان تماماً».

ارتجفت وهي تنظر إلى وجهه القوي الملامح بما يشبه الافتتان، وقد اشتبكت يداها الصغيرتان بشعره.

ـ لا يمكنني البقاء، فلدي عمل أقوم به.

ـ أصبح الوقت متأخراً، ما رأيك لو تبقين هنا، وسوف أوصلك إلى فندقك صباحاً ساعة تشائين؟ أظنك تشعرين بالتعب.

لم يكن التعب فقط ما جعلها تقبل اقتراحه، وإنما رغبتها في البقاء بقرب هذا الرجل الجذاب.

ومضت لحظة تملكها فيها ما يشبه التعقل فقالت بصوت مرتجف: «لا، من الأفضل أن أذهب».

وكأنما شعر خافيار بمخاوفها فقال يطمئنها: «أعدك بأن أتصرف كرجل شهم. سأنام في غرفة الضيوف».

نظرت إليه وقد تبدد كل شعور بالحذر لديها. فقد كانت رغبتها في البقاء معه تفوق كل تصور.

ـ حسناً، سأبقى إذا كنت تحترم وعدك حقاً.

ـ يا إلهي! لا يمكنني أن أسيء إليك مايلين. أنا لم أتأثر بامرأة في حياتي كما تأثرت بك. أريدك في حياتي إلى الأبد.

ـ حقاً؟

تنهد خافيار وأزاح خصلات من شعرها عن حاجبها وعيناه تتفحصان وجهه الجميل: «غداً، بعد أن تنهي عملك. سنخرج معاً للاحتفال بعيد ميلادك. لماذا لم تخبريني بذلك، مايلين؟».

ـ لم أظن أنك ستهتم للأمر.

ضمها إلى صدره بقوة: «من الآن فصاعداً، سأهتم بكل ما يتعلق بك».

لم تكن لديها فكرة عن كيفية التصرف في مثل هذا الوضع. هل التقت حقاً بحب حياتها؟ وصعدت إلى حلقها ضحكة هستيرية.

ـ هذا ليس مضحكاً يا مايلين. أنا أتكلم بجدية، لست أمزح في هذا الأمر.

فقالت بفتور: «آسفة، فأنا لست معتادة على مثل هذه الأمور».

تأوه، ثم رفع يده وأخذ يسرّح شعرها إلى الخلف بحنان: «أشعر أننا خلقنا لبعضنا، مايلين. لقد تأخر الوقت الآن، ومن الأفضل أن تنامي وسنتحدث بالأمر غداً، اتفقنا؟».

ورفع ذقنها لينظر في عينيها الخضراوين الكبيرتين: «أحبك مايلين. لا أدري كيف حصل لي ذلك. أشعر أنك لي، لي وحدي وإلى الأبد».

وانفرجت شفتاه بابتسامة وعيناه الداكنتان تتراقصان ببهجة جعلت قلبها في صدرها يمتلىء بالحب. لكنها خشيت الاستسلام لمشاعرها

فابتعدت عنه قليلاً: «حسناً، سأفكر بالأمر فيما بعد، أما الآن فأنا بحاجة إلى الذهاب إلى الحمام قبل الخلود إلى النوم».

عندما عادت إلى الغرفة، بعد أن غسلت كل الزينة عن وجهها وحاولت أن تمشط شعرها وقفت عند الباب بالضبط. كان خافيار مستلقياً على ظهره فوق الأريكة، مغمض العينين وصدره يعلو ويهبط بانتظام. وتملكها شعور قاهر بالحب. ولم تعد تستطيع التنفس.

ومن دون أن يفتح عينيه قال بنعومة: «تعالي إجلسي بقربي مايلين. يمكنني أن أشعر بك واقفة هناك».

فقالت وهي تسير نحوه ببطء: «وكيف عرفت أنني واقفة هناك؟».

ـ أنت نصفي الآخر.

فتح عينيه ونظر في عينيها، وأدار رأسها الدفء الذهبي في عينيه. أخذت عيناه تجولان فوق جسدها، ثم عادتا إلى وجهها الخالي من الزينة: «أنت رائعة الجمال ومن دون تبرج عارضة الأزياء، أنت أكثر جمالاً. تعالي».

ومدّ يده إليها، فوضعت يدها في يده بثقة وإذا به يجذبها إلى ما بين ذراعيه ليغرقها في عناق طويل، حمل إليها أحاسيس لم تعرف بوجودها من قبل. وأدركت مايلين أن هذا الرجل هو من كانت تنتظره طوال حياتها.

***

رنين هاتف بعيد أيقظ مايلين من نوم عميق. فتحت عينيها فوجدت أنها ليست في غرفتها في الفندق. تشتت ذهنها للحظة ثم عادت وتذكرت أنها في غرفة خافيار. حملت الهاتف النقال ونزلت من السرير ثم توجهت إلى الغرفة الأخرى تحمل إليه الهاتف. فتحت الباب بحذر راجية أن ترى في عينيه هذا الصباح لمحة الحب التي رأتها فيهما ليلة أمس. دخلت إلى الغرفة وأنفاسها تحتبس في حلقها من التوتر. ما إن شعر خافيار بوجودها حتى تململ في السرير: «مايلين».

ذكر اسمها برقة وبصوت أجش عميق من تأثير النعاس. وبسرعة فتح

عينيه جيداً، ثم أنارت وجهه ابتسامة عريضة عندما رآها تنظر إليه: «إذن ذلك لم يكن حلماً».

تبدّدت مخاوفها كما يتبدد الثلج فوق النار: «لا، ولا رنين الهاتف أيضاً».

أجابته بابتسامة وهي تناوله الهاتف. أخذه من يدها بعد أن استوى في جلسته على السرير.

وقفت مايلين تتفحصه من خلال عينين ناعستين. وأرادت أن تقرص نفسها لتتأكد أن ما يحصل معها حقيقة لا وهم؛ خافيار أحبها، وهو يريدها أن تبقى معه. لقد طلب منها أن تتوقف عن عرض الأزياء فوافقته على ذلك بسرور لأنها كانت ستفعل ذلك على كل حال، ولكن قبل أن تتمكن من الشرح، عاد يحتضنها بشوق لم يعد للكلام معه أي معنى. هذا لا يهم! لا شيء يهم هذا الصباح سوى مشاعرهما نحو بعضهما البعض. رأت وجهه يظلم وهو يقطّب جبينه بشراسة، ثم يبدو فجأة أكثر خشونة وأكبر سناً، وإذا بإحساس غامض بالخوف يسري في كيانها.

وضع سماعة الهاتف بعنف ثم همّ بالنزول من السرير.

ـ ماذا جرى؟.

سألته وقد شعرت بالقلق لرؤيته متجهماً. فالتفت إليها وكأنه أدرك للتو أنها موجودة.

قال بابتسامة جافة وهو يقف بالقرب منها: «آسف يا حبيبتي، ولكن عليّ أن أذهب إلى ميدان السباق، ولا أدري كم سأتأخر».

وتأمل طويلاً وجهها الفتيّ الغارق في النعاس، ثم أزاح شعرها عن حاجبيها إلى الخلف وأضاف:

ـ يا لفتاتي وعيد مولدها! الساعة ما زالت السادسة والنصف، عودي إلى النوم وسأترك لك مفتاح الشقة على مائدة المطبخ وبطاقة مع العنوان.

وأحنى رأسه وعانقها عناقاً سريعاً، فاحتك شعر لحيته النابت حديثاً ببشرتها الناعمة: «إذا أنهيت عملي سأتوقف عند صالة عرض الأزياء. آخر

عرض لك».

قال جملته الأخيرة بشيء من الرضا: «أو أتصل بك إلى فندقك وأذهب لإحضارك».

وأضاف وهو يتجه إلى الحمام: «ولكن إذا لم أتصل بك قبل الخامسة، احزمي أمتعتك من الفندق وتعالي إلى هنا. اتفقنا؟».

ثم دخل الحمام.

عادت مايلين إلى السرير، ثم تنهدت حالمة. وبعد دقائق كانت قد استغرقت في النوم مرة أخرى، لم تر قط خافيار عندما دخل إلى غرفتها ليبتسم لها بحنان، لكنها تحركت قليلاً في نومها عندما شعرت بقبلة ضعيفة ناعمة تحتك بجبينها بنعومة، وتصورت في أحلامها أنها سمعت صوته يقول: «أحبك».

تأملت صورتها في مرآة الحمام في شقة خافيار وضحكت. بدت مختلفة، فقد كست ملامحها البهجة والسعادة.

إنها عاشقة. أرادت أن تصرخ باسم خافيار من فوق السطح. إنه أمير أحلامها نفسه. لكنها، بدلاً من ذلك، أخذت تهمهم بسعادة ثم توجهت إلى المطبخ. سوف تتناول القهوة قبل أن تستدعي سيارة أجرة لتأخذها إلى الفندق.

ملأت فنجاناً من القهوة ثم أحاطته بيديها. تشممت رائحة القهوة العابقة وتنهدت بسعادة بالغة. لم تنتبه قط من قبل إلى مشاعرها هذه، كل شيء في عالمها اتخذ صورة أوضح وأكثر حدة.

نظرت إلى المفتاح الصغير الملقى على مائدة المطبخ مع البطاقة التي تحمل عنوانه. كان المفتاح يتوهج كالذهب في أشعة شمس الصباح، إنه مفتاح بقية حياتها... تراءى أمامها مستقبل ذهبي رائع مع خافيار، حبيبها. فمع أنها لم تعرفه إلا منذ يومين، ولكن لم تتملكها أي شكوك، إنه توأم روحها. أخذت البطاقة ودستها في حقيبة يدها ثم أطبقت يدها على المفتاح.

وبعد لحظات سمعت صوت الباب ينفتح فقفزت عن الكرسي. لقد

عاد خافيار.

أسرعت إلى غرفة الجلوس وقد تألقت عيناها بالتوقع، وانصبت نظراتها على الرجل الذي دخل من الباب. فتحت فمها لتتكلم وإذا بها تسكت مشدوهة، فقد كان هذا الرجل غريباً تماماً... بدا متوسط الطول، متين البنية، وجذاباً بشعره الأسود الجعد. كان يرتدي بنطلون جينز ويحمل بيده حقيبة من القماش أسقطها عند قدميه. انتصب الرجل في وقفته وأخذ ينظر إليها من رأسها حتى أخمص قدميها. ثم قال شيئاً بالإسبانية بدا لها أشبه بشتيمة.

سألته مجدداً مدركة خطر وضعها: «ماذا تفعل هنا؟».

ـ لغتي الإنكليزية ليست جيدة جداً، لكنني سبستيان.

ـ لكن هذا غير ممكن! هذا بيت خافيار.

ـ آه، خافيار.

هزّ رأسه وسار ليجلس على أريكة حيث أراح رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه: «خافيار يشاركني شقتي خلال أسبوع السباق. وهذا ليس بيته مهما كان ما قاله لك».

وفتح عينيه لينظر إليها ساخراً: «أين هو؟ أهو في سريره ويجعلك تعدين القهوة؟».

ـ لا، لقد ذهب إلى العمل.

وتمنت لو أنها أبقت فمها مغلقاً، إذ أن إخباره بأنها وحدها في الشقة، ليس فكرة حسنة.

ـ العمل!

ثم ضحك: «يا له من عذر! إسمعي يا سيدتي الصغيرة، أنا متعب جداً، فأنا قادم من رحلة استغرقت ساعات. أريد قهوة ونوماً».

ونظر إليها بوقاحة، ثم أضاف بغير تهذيب: «أنا وخافيار نشترك في كل شيء. كل شيء أفهمت؟ لكنني متعب جداً الآن كما أنه يبدو عليك الإرهاق مثلي. وهو لن يعود، فلماذا لا ترحلين؟».

شحب وجهها لما يتضمنه كلامه من تلميحات: «قولك هذا مثير للاشمئزاز وأنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقول. خافيار يحبني، وهو... هو يريدني أن أبقى معه».

نظر إليها بازدراء. ثم، وكأنه أدرك أنها جادة، انتصب في جلسته: «وهل قال لك ذلك؟».

ـ نعم. إنه سيقابلني عندما ينتهي عمله في ميدان السباق.

لقد وعدها خافيار بذلك، ورفضت أن تصدق أنه كذب عليها. لم تشأ أن تصدق ذلك... لكن صوتاً هامساً ساخراً همس في رأسها: (ما الذي تعرفينه حقاً عن خافيار، غير كلامه المعسول ووعوده؟) وفجأة عرفت الرجل: «أنت الرجل الذي في الصورة على رف المدفأة؟».

ـ نعم، وخافيار فالدزبينو لا يعمل. ليس العمل الذي نعرفه أنا وأنت.

ورفع حاجبيه ساخراً: «أمواله تساند فريق السباق، وهذه هواية معظم الرجال الأغنياء. وهو يملك بنكاً تجارياً ولديه بيوت في سيفيل، ومدريد وبونيس إيريس، كما أنه يملك أراضٍ واسعة».

شعرت وكأن شيئاً وخزها في معدتها. تحسست المفتاح في يدها ثم أرته إياه وكأنه طلسم: «لكنه أعطاني مفتاح الشقة».

تأمل سبستيان المفتاح طويلاً مقطباً جبينه، ثم قال ساخراً وهو ينظر إلى وجهها الشاحب: «لقد أعطاك مفتاحاً إذن، ولكن هل جربته في القفل يا صغيرة؟».

انكمشت مايلين في مكانها متمنية لو تموت في تلك اللحظة. لقد تحققت أسوأ كوابيسها. نظرت إلى المفتاح في يدها بغباء وأدركت أنه لم يخطر ببالها قط أن تجربه في القفل قبل أن تغادر المنزل.

ـ خافيار يحتفظ بمجموعة من المفاتيح، وهي خطة يفضلها كلما أراد الخلاص من امرأة، وهكذا يتركها بهدوء. أنا أعرفه جيداً فهو صديقي الحميم وخطيب أختي. إذا كنت لا تصدقيني فاذهبي وجربيه في القفل.

ـ خطيب أختك!

تساءلت برعب، وقد أدركت أن الصورة التي رأتها على رف المدفأة والتي سألت عنها خافيار الليلة الماضية هي له ولخطيبته. وشعرت بالغثيان. ترنحت قليلاً، وصرخ ذهنها أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً.

وفجأة أمسك الرجل بذراعها: «هل أنت بخير؟... تبدين شاحبة».

ونظر إلى ثوبها الخفيف ثم عاد ينظر إلى وجهها الشاحب الخالي من الزينة: «تعالي واجلسي. هل شعرت بالصدمة؟».

تركته مايلين يقودها إلى الأريكة بخنوع.

ـ اسمحي لي بأن أعتذر عن رجل من بلادي. آسف فأنا لم أدرك أنك أصغر سناً من النساء اللاتي اعتاد أن يخدعهن بوعوده.

كان سبستيان رقيقاً، أحاط كتفيها بذراعه وحاول أن يجلسها برفق: «أنت رأيت الصورة على رف المدفأة. أخذت هذه الصورة منذ ثلاثة أشهر. هل أنا بحاجة إلى قول المزيد؟».

ـ لكن أختك... حسناً، هل تعلم أن خافيار غير مخلص لها؟

قاطع سؤالها المتلعثم بضحكة عالية: «أسرة خافيار هي من أقدم الأسر في سيفيل وأجداده هم مزيج من العرب والإسبان، وهو ما زال تقليدياً في تفكيره... يريد أن تكون عروسه عذراء ليلة الزفاف. إلى أن يحين ذلك فهو يمضي أوقاته باللهو مع النساء. وهذا لا يعني أنه غير مخلص، فالأمر لا يعني شيئاً بالنسبة إليه، وكانيا خطيبته متفهمة لذلك، رغم أنني، أحياناً، أشعر بالخزي من تصرفاته، كما يحصل الآن. أراك لست من نوع النساء العابثات، وهكذا، مرة أخرى، أنا آسف».

لم تستطع مايلين قول المزيد بسبب ما شعرت به من خدر نتيجة الفزع والصدمة. وهكذا طلب سبستيان لها سيارة أوصلتها إلى فندقها.

* * *

بدا سيرجيو مسروراً من عرضها ظهر ذلك اليوم.

ـ رائعة يا مايلين. هذا بالضبط ما كنت أتمناه.

اغرورقت عيناها الخضراوان بالدموع فغالبتها بغضب: «أنا مسرورة لأن هناك من يرضى عني».

قالت هذا بصوت مرتجف، فأحاط كتفيها بذراعه وبدا العطف على وجهه وهو ينظر إلى وجهها الشاحب: «آه، يا إلهي! أنت وقعت في غرام فالدزبينو. كان عليّ أن أحذرك، فالإشاعات تقول إنه مخطوب إلى فتاة صغيرة تناسبه، بالرغم مما يقال عنه بأنه زير نساء، ولكن، الحق يقال، هو كريم جداً مع النساء اللاتي يدخلن حياته. أنظري إلى الناحية الجيدة، اتصل بي أحد مستخدميه هذا الصباح ورتب الأمر لدفع ثمن الثوب. وهكذا يمكنك الآن أن تفخري بأنك صاحبة الثوب الأسطوري الذي ابتكره سيرجيو».

فيما هي تصغي إلى سيرجيو، تلاشى كل أمل لديها في أن يكون الأمر مجرد غلطة وأن خافيار سيصل إلى العرض ليراها، أو ربما يتصل بها إلى الفندق، لقد تلاشت كل أحلامها. وإذا كان الثوب لم يعجبها من قبل، فقد كرهته الآن.

عادت إلى غرفتها في الفندق، وعلى الفور اتصلت بالمطار. ولحسن حظها تمكنت من الحصول على مقعد في طائرة خاصة بالإجازات ستغادر في الرابعة والنصف من بعد الظهر. وبسرعة، ألقت بثيابها في الحقيبة والدموع تغسل وجهها، ثم مزّقت الثوب ورمته في القمامة. ولم تجرؤ على التفكير: أهي تذرف الدموع لتحطم قلبها أم غضباً من غبائها لأنها صدقت أن المرء قد يقع في الحب من النظرة الأولى؟

لقد تصرفت كطفلة حمقاء ساذجة إذ صدقت أكاذيب خافيار. وأقسمت، وهي تستدعي سيارة أجرة، على ألاّ يحدث لها هذا مرة أخرى.

وضعت السماعة، ثم أخذت حقيبة يدها. وعندما أخذت تطمئن إلى وجود جواز سفرها، نظرت طويلاً إلى البطاقة التي طبع عليها... اسم سبستيان غاردا وعنوان ورقم هاتفه. وبدا لها ذلك أكبر برهان، على أن خافيار كذب عليها... حتى إنه لم يعطها رقم هاتفه الخاص. رن جرس

الهاتف فرفعت السماعة. وجاءها صوت خافيار الغاضب: «مايلين، ما هي لعبتك؟ لماذا تركت المفتاح؟».

ـ أنا لست بحاجة إلى المفتاح ولا إليك. الوداع.

وأقفلت السماعة مرة أخرى عندما كانت تتناول حقيبة ملابسها وتغادر الغرفة.

* * *

٥ ـ عرفتك، منذ البداية

استيقظت روز على صوت صفق الباب. جلست وهي تغالب النعاس وأدركت، من طراز الغرفة الغريب، أنها ليست في بيتها.

دعكت عينيها بيديها. هل ما حدث أمس حدث حقاً؟ هل سيصبح خافيار ڤالدزبينو نسياً لأسرتها؟ لا يمكنها احتمال مجرد التفكير في ذلك. تأوهت بصوت مرتفع، وتملكها إغراء للعودة إلى تحت الأغطية. لكن آن كانت تسير نحوها وفي يدها فنجان قهوة: «آسفة يا روز، ولكن عليك أن تنهضي».

ـ كم الساعة؟

تمتمت روز بهذا وهي تنظر إلى وجه ابنة خالها الجميل بعينين غائمتين.

ـ الحادية عشرة والنصف. اشربي هذا واستعدي. سوف نغادر بعد وقت قصير.

ووضعت الفنجان على المنضدة، فصرخت روز: «الحادية عشرة والنصف؟ لماذا لم توقظيني قبل الآن؟».

وجلست على حافة السرير وتناولت الفنجان.

ـ لأن خافيار ذكرنا بأن رئيسك أعادك إلى إنكلترا لترتاحي، وأصرّ على أن نتركك نائمة. أظنك سلبت لبه! عليك أن تشكريه هو وليس أنا.

وخرجت ضاحكة.

وقفت روز تحت الدوش وهي تتأوه بخزي. يا للفضيحة التي تبقى في فراشها إلى ما يقارب وقت الغداء! الذنب كله يقع على ذلك الرجل

البغيض. خرجت من تحت الماء وأسرعت تجفف جسدها ثم عادت إلى غرفتها حيث غيّرت ملابسها. ارتدت قميصاً مرتفع العنق قصير الكمين فوق بنطلون رمادي.

ثم خرجت من الحمام لتهبط السلم إلى الطابق السفلي.

ـ صباح الخير، روزالين. أظنك نمت جيداً!

قال خافيار ذلك ببطء، وهو ينظر إليها بدقة فيما هو يستند إلى باب غرفة الجلوس.

كانت تمشي مرفوعة الرأس، فألقت عليه نظرة سريعة. كان يرتدي بنطلون جينز أسود وقميصاً رياضياً أسود. بدا لها رجلاً متفوقاً، فقد ظهرت الغطرسة في كل خط من خطوط جسمه.

قالت بجفاء رافضة أن يرهبها برجولته المدمرة: «نعم، شكراً لك».

ما أخبرتها به آن جعلها تشعر بالاضطراب، فهو الذي أوعز بألا يوقظها أحد.

ـ والآن، هذه دعوة من المستحيل رفضها. يجب أن أتذكر هذا في المرة القادمة التي تتأخرين فيها في النوم.

عندما أدركت ما قالته توهج وجهها احمراراً. ثم اندفعت من جانبه هاربة إلى خلف المنزل وأمان المطبخ، وصوت ضحكته الخافتة يرن في أذنيها.

في المطبخ رأت روز آن وجين وتيريزا. ورأت على المائدة طبقاً كبيراً من البيض واللحم، فدعونها لأن تجلس وتتناول طعامها لأنهم سيغادرون بعد نصف ساعة.

أثناء تناولها الطعام حاولت أن تخبرهن أنها لن تذهب إلى إسبانيا: «إنه القرن الحادي والعشرين، ولم يعد هناك مرافقات للفتيات هذه الأيام».

فقالت آن بحدة: «أرجوك يا روز... كفى مراوغة وتضييعاً للوقت! سبق لخافيار أن استدعى طياره مرتين وأخّر موعد السفر. مطار إيست ميدلاند يكون مشغولاً جداً في مثل هذا الوقت من السنة بطائرات العطلات إلى كل بلاد البحر الأبيض المتوسط».

كادت روز تختنق وهي تتناول البيض. لديه طائرة خاصة؟ ولكن، لماذا لا وهو ذلك الثري الذي يملك كل شيء؟ وشعرت بمرارة.

سألتها آن: «هل حزمت حقيبة أمتعتك؟».

ـ نعم.. لا.. حقيبة العطلة الأسبوعية في الغرفة، وبقية حوائجي ما زالت في السيارة. لكنني لا أستطيع أن أترك «برترام».

قالت هذا بانتصار.

جعلتها حركة عند العتبة تلتفت بصمت. كان خافيار داخلاً مع أليكس، ما جعل المطبخ يبدو ضيقاً نوعاً ما. كان أليكس في إثره، لكن خافيار هو الذي أثار انتباهها. فقد جمد مكانه، وظهر التوتر في كل أنحاء جسمه، فيما أخفت أهدابه المسبلة كل التعبير في عينيه: «من المؤكد أن بإمكان حبيبك أن يعيش أسبوعاً على الذكريات فيما تقومين أنت بمساندة أسرتك. سبق واضطررت أنا لذلك».

قال خافيار هذا بصوت عميق وبنبرة تشير إلى مشاعر قوية كان يسيطر عليها بحزم.

أدركت روز معنى آخر تعليق له في الوقت الذي انفجرت فيه آن وأليكس بضحك ملأ المطبخ.

بدا واضحاً أنه يشير إلى أنه يعيش على ذكريات زوجته الراحلة، ولا بد أنه كان يحبها كثيراً.

أدركت روز هذا، ما جعلها تتخطى وخزة الألم التي شعرت بها. ألقت بشوكتها ودفعت طبقها جانباً، شاعرة تقريباً بالأسى لأجله.

ربت أليكس على ظهر خافيار وهو ما زال يضحك: «كلا، يا صديقي. فأنت قد أسأت الفهم حقاً. ليس لدى روزالين حبيب، فهي مشغولة جداً بخدمة الناس. «برترام» هي سيارتها وليس حبيبها».

والتفت إلى روز: «لا حاجة بك إلى القلق بشأن السيارة. سأعتني بها لأجلك، وستبقى عندنا حتى تعودي. وفي الواقع ستؤدين لي خدمة بذلك. فأنا متلهف للجلوس خلف مقودها مرة أخرى. اعتاد أبوك أن يتركني

أقودها أحياناً... كم كنا نستمتع بذلك».

إشارة خالها أليكس إلى أبيها، وابتسامته الكئيبة لها، أقنعت روز بأن ليس لديها خيار: «سأذهب لأحضر حقيبتي والمفتاح».

قالت هذا مذعنة برقة، وهي تنهض وتنظر إلى خافيار أثناء مرورها بقربه.

فقال بابتسامة أزالت التوتر من ملامحه: «يا للفتاة الطيبة! وأنا أعدك بالحصول على عطلة ممتعة».

كادت تبادله ابتسامته، لكن المنطق منعها. إنها بحاجة إلى وعد آخر من نوع آخر من خافيار فالدزبينو. ثم ما الذي يجعله يدعوها «فتاة»، هذا المتغطرس المغرور؟ فكرت في هذا بجفاء وهي تدخل إلى غرفتها.

كان قلبها يخفق بشيء من السرعة، وفسّرت ذلك بصعودها السلم ركضاً. لا تريد أن تعترف ولو للحظة بأن ابتسامة خافيار هي السبب في تسارع خفقان قلبها. وقررت أن ليس لديها سوى وقت قصير لحزم أمتعتها القليلة. وبعد قليل، هرعت عائدة تهبط السلم إلى الأسفل ثم إلى الخارج. أسرعت إلى سيارتها ثم فتحت الصندوق، وأمسكت بمقبض الحقيبة.

ـ اسمحي لي.

وأخذت حقيبة الملابس من يدها يد ضخمة ووضعتها على الأرض.

ارتفع بصرها إلى العينين الداكنتين: «أنا لست عاجزة».

فرفع أحد حاجبيه بغطرسة: «وهل قلت أنا ذلك؟ أي امرأة تقتني هذه السيارة الرائعة «برترام» يجب أن تكون بالغة الثقة بالنفس. فليس من السهل قيادة سيارة كهذه والعناية بها».

تألقت عيناه استحساناً لهذه السيارة الرياضية الفارهة، ثم أخذ يدور حولها ببطء.

ناولت المفاتيح لخالها، الذي عاد ليقف عند الباب حيث يقف بقية أفراد الأسرة وهو يصفر بفمه مسروراً.

غضنت روز أنفها بخيبة أمل عندما جلست على مقعدها في الطائرة

وربطت الحزام حولها. كان خافيار في مقدمة الطائرة يتحدث مع الطيار. وجيمي وآن يجلسان متلاصقين كالعادة. بدت روز مقطبة الجبين لهذه الرفاهية الظاهرة في الطائرة الخاصة. فبعد الفقر الذي رأته أثناء عملها، شعرت أن من المعيب، نوعاً ما، أن يمتلك رجل كل هذا.

ـ خذي جنيهاً وأخبريني بما تفكرين.

بدا خافيار أمامها فجأة، ثم غاص في المقعد إلى جانبها، لا يفصل بين كتفيهما سوى عدة إنشات.

ألقت نظرة جانبية على جانب وجهه الوسيم، وفكرت بقنوط بأن مليون جنيهاً لا تكفي ثمناً لفضح أفكارها نحوه. لماذا يستطيع هذا الرجل من بين كل الرجال أن يؤثر عليها هذا التأثير الكهربائي؟ هذا ليس عدلاً. ولكن هل في الحياة الكثير من العدل؟

وجدت الفكرة الأخيرة مهرباً تخبره به للتخلص من الإجابة الحقيقية على سؤاله، وإن بدا ذلك وجهة نظر مستهلكة.

من المدهش أن الوقت مرّ بسرعة عندما خاضا في نقاش حول توزيع الثراء. بدا خافيار محدثاً ذكياً للغاية، ووجدت روز أنها في الواقع مستمتعة بهذا الصراع بين ذكائيهما، وبحدة الجدل عن المصارف الغربية ومحو ديونها على دول العالم الثلاث الفقيرة، وكانت روز تناصر هذه الفكرة بينما يعارضها خافيار، بصفته صاحب مصرف. وتغلبت قوة عقيدتها على ليونة طبعها فأخذت تصفه بأنه نموذج للرأسمالي النهم للتسلط والسيطرة وتدخل جيمي متوسطاً بينهما: «كفى يا روز. إنه يثيرك ويوتر أعصابك ليس إلا. فهو يمنح المبرّات ودور الإحسان، وينفق على عشرات من الطلاب الإفريقيين والله وحده يعلم ماذا أيضاً».

رفعت روز وجهها إلى خافيار بحذر وقد بدا الخزي عليه: «هل هذا صحيح؟».

فتمتم بابتسامة قصيرة: «أنا مذنب حقاً، لكنك تأخذين الطعم وتثورين بسرعة يا روزالين. فلم أستطع المقاومة».

ابتلعت روز ريقها بصعوبة: «أنا آسفة إذن لنعتي لك بتلك الألفاظ».

تأملها خافيار بعينين لا يُسبر غورهما، ولم تسفر ملامحه القوية عن أي تعبير: «لا داعي للاعتذار. الحق معك جزئياً على الأقل. فأنا (نهم للسيطرة والتسلط) حقاً».

اعترف بذلك بصوت عميق وبطء ساخر، ترك روز تحت تأثير تهديد غامض. أما لماذا؟ فلم تكن لديها فكرة...

وفي هذه اللحظة جاء صوت الطيار لينبههم أنهم على وشك الهبوط، فتحول انتباهها عنه.

انتهت الإجراءات في المطار، ولم تعترض روز عندما أخبرها خافيار أن جيمي وآن سيذهبان في سيارة الليموزين إلى بيته، أما هما فسيذهبان في الفيراري الجاثمة في المطار.

أما العذر في هذا التفريق فهو أن الليموزين لا تتسع لكل الأمتعة، وبدا ذلك مقبولاً. ولكن ما إن جلست في سيارته الرياضية لا يفصل بينها وبينه سوى إنشات قليلة، حتى ابتدأت تتساءل عن مدى الصواب في وجودها معه بالسيارة من المطار إلى الطريق الرئيسي، ثم قالت لتحطم التوتر الذي شحن الصمت بينهما: «كان عليّ أن أتكهن أنك تملك سيارة فيراري».

ـ أنت تعرفينني جيداً.

تحوّل بصره إليها لحظة ثم عاد إلى الطريق. وعلى الفور أدركت أنها كادت تسيء التصرف مرة أخرى، فهزت كتفيها: «حسناً، يبدو أنك تحب السيارات الرياضية».

ـ هذا صحيح. لديّ مجموعة جيدة من السيارات الرياضية القديمة وهي في مخزن خارج المدينة، سأريها لك ذات يوم. ولكن لاستعمالي اليومي، أنا أعشق سيارتي الفيراري الحمراء هذه.

ـ ولماذا حمراء؟ إنه لون يعمي النظر قليلاً في الحر، كما أظن.

سألته بهدوء، لأنها كانت تسيطر على نفسها بصعوبة. وجودها وحدها معه كان له تأثير كارثي على حواسها.

ـ أنا تقليدي، فالسيارة الفيراري لا بد أن تكون حمراء في نظري.

لم تعلق على كلامه بل التفتت تنظر خارج السيارة، فقد أثبت لها ما كانت تعرفه من قبل. لقد عرفت ذلك عندما كانت في التاسعة عشرة بطريقة صعبة. فقد أخبرها سبستيان أنه تقليدي. أما لماذا شعرت بالكآبة لهذه الفكرة، فهذا ما لم تعرفه.

ثم لم تلبث المناظر حولها أن أسرت انتباهها. كانت الطرق ضيقة متعرجة. وعرض عليها خافيار أن يأخذها في جولة سريعة في المدينة، فوافقت روز على ذلك. وسرعان ما أدركت أنه وافر الإطلاع على تاريخ المدينة، مسقط رأسه هذه.

نظرت إلى خافيار، بأنفه الذي يشبه أنف الصقر وعينيه السوداوين الملتهبتين وشعره الفاحم، وبدا لها، بشكل قاطع الآن، أنه عائد إلى أرض أجداده. ارتجفت قليلاً، وأخذت تنظر إلى الخارج عبر النافذة.

ـ لم أعرف قط أن هناك نهراً يجري وسط مدينة سيفيل.

هتفت بذلك مدهوشة عندما أدركت أن الطريق الذي كانا يسلكانه يسير بجانب نهر واسع.

ـ «الوادي الكبير» نهر مشهور، ولكن ما تنظرين إليه بالضبط هو «قنال ألفونسو الثالث عشر». لقد حُوّل مجرى النهر في بداية القرن العشرين لمنع طوفانه على المدينة، ولتتمكن المدينة من الإستمرار بكونها مرفأ.

تركت السيارة الطريق ودخلت من تحت قنطرة حجرية إلى فناء داخلي مبلّط. شهقت روز بحيرة فهي لم تر مثل هذا المنزل من قبل على الإطلاق. كان يحيط به جدار ضخم مع كاراجات وإصطبلات أنشئت في داخله وأحاطت بالفناء من ثلاث جهات والمنزل في الجهة الرابعة. رأت عدداً من الدرجات على شكل نصف دائرة، تؤدي إلى باب ضخم من خشب السنديان المطوّق بالحديد. كان الباب مفتوحاً على اتساعه. وشاهدت رجلاً أسمر صغير الحجم واقفاً بصرامة وقفة انتباه وهو ينتظر وصولهما كما يبدو. نزل خافيار من السيارة ثم دار حولها وفتح لها الباب: «مرحباً بك في بيتي،

روزالين».

ونزلت هي بسرعة أكثر مما يستلزمه الذوق.

ـ إنه يبدو جميلاً.

قالت هذا برقة. ثم تصلب جسمها عندما أمسك بذراعها يساعدها على صعود الدرجات الحجرية. قال عدة كلمات بالإسبانية للخادم ثم قدمها إليه.

يبدو أن ماكس يعمل رئيس خدم وسائقاً في آن معاً وزوجته مارتا هي الطاهية.

بعد الحرارة في الخارج، بدا جو المنزل الداخلي منعشاً بارداً، ورائع التأثير، فقد كان مزيجاً من الطابعين الإسباني والعربي. أرض الردهة البالغة الاتساع مرصوفة بالموزاييك المتألق. أما القبة فكانت شاهداً على مهارة الحرفيين الذين بنوها ومثابرتهم. كذلك بدت الأعمدة الرشيقة المحيطة بالممر. وخلف ذلك الممر انتصب باب المدخل المظلل المؤدي إلى غرف الإستقبال أما في الوسط فهناك سلم رائع إسباني الطراز.

ـ أبي برتاح الآن، وستقابلينه أثناء العشاء. أما الآن، فسآخذك إلى غرفتك.

وبدون أن يترك ذراعها قادها إلى السلم. وفجأة بدا جيمي وآن عند قمة السلم: «نحن ذاهبان لاكتشاف المدينة، ستراكما في السابعة».

قال جيمي هذا ببشاشة وهو يهبط السلم. وعندما مرا بهما صاحت آن بروز: «ألا يبدو هذا المكان خلاباً؟».

استدارت روز وصرخت: «انتظري! ألم أحضر إلى هنا كمرافقة لك؟».

لكنها قالت كلامها سدى، فقد توارى الشابان عن الأنظار. وشد خافيار بأصابعه على ذراعها: «آه، أنا واثق أن بإمكاني أن أشغل وقتك بشيء مفيد».

تمتم بذلك وهو يستعجلها إلى قمة السلم. ثم قادها عبر ممرّ آخر، مرّ أمامها ببابين ثم وقف أمام الثالث: «مارتا منحتك جناح الزاوية، وأرجو أن

يعجبك».

ثم فتح الباب ودعاها إلى الدخول.

هتفت روز بإعجاب. لم تر قط من قبل مثل هذا، فهناك سرير ذهبي ضخم ذو مظلة يتوسط الغرفة. وقد علقت ستائر حريرية فاخرة مربوطة بشرائط زرقاء فوق جوانبه. وكان في الغرفة أربع نوافذ مقوسة أنيقة قائمة في جدارين. شهقت ذاهلة لهذا المشهد. من ناحية، كان يطلّ على سطوح المنازل، ويطل من الناحية الأخرى على مشهد رائع للنهر. أما الأثاث فكان من اللونين الأزرق والذهبي.

استدارت ببطء. كان خافيار قد دخل معها ووقف بجانب السرير: «هذا السرير هدية من أحد الشيوخ العرب، هل أعجبك؟».

سألها ببساطة تامة، لكن بدت في عينيه نظرة غريبة فهتفت وعيناها المفتونتان تدوران في كل ناحية: «أعجبني؟ وما الذي لم يعجبني؟ لقد رأيت أسراً كاملة تعيش الواحدة منها في خيمة باتساع هذا السرير».

ضحك بصوت خافت: «ترين هنا باباً يؤدي إلى الحمام وغرفة الملابس، وغرفة جلوس لها أيضاً باب على الردهة».

وسار إلى باب آخر وهي في أثره، وفتحه، فشهقت بصوت مرتفع. كانت الجدران مغطاة بطبقة رقيقة من الرخام الأبيض المزخرف، أما الباب ذو الإطار المذهب فيؤدي إلى الحمام. كل ما في الحمام من قطع كان ذهبي اللون. أما حوض الاستحمام فكان ضخماً مستديراً ومصنوعاً من الرخام الأبيض.

ـ هذا انحلال. إنها الكلمة الأولى التي تقفز إلى الذهن.

قالت هذا بجفاء وهي تعود إلى غرفة النوم لتجد خافيار خلفها مباشرة.

وضع يديه القويتين على كتفيها فحاولت أن تنفضهما. لم تكن تريده أن يلمسها، لكنه أدارها نحوه ببطء: «إنها تناسبك. غرفة منحلة لأجل سيدة منحلة... يا... مايلين».

لجزء من الثانية، اعتقدت أنها أخطأت السمع. رفعت إليه عينيها

الذاهلتين. كانت عيناه السوداوان تلمعان باحتقار قاس. بينما الوعيد في فمه الصلب والجمود في ملامحه الأخاذة جعلاها تدرك أنها لم تخطىء السمع. شحب وجهها ولم تعد تستطيع التنفس.

إنه يعلم... كان يعلم منذ البداية أنها مايلين! لقد تذكرها، وكان يعبث بها طوال العطلة الأسبوعية كأنه فهد ناعم الملمس يتربص للقفز، وها هوذا الآن ينتظر ردة فعلها.

بعد لقائها الكارثي القصير به منذ عشر سنوات، تعلّمت كيف تخفي مشاعرها. سنوات من دراسة الطب وسنوات أخرى في العناية بالمرضى والأموات جعلتها بارعة في إخفاء تلك المشاعر.

ـ الشخص الوحيد المنحل هنا هو أنت.

قالت هذا بجفاء. وسلخت عينيها عن عينيه وأخذت تحدّق في ما يحيط بها: «وطالما أنك عرفتني، لمَ لم تقل ذلك؟».

وتراجعت خطوة إلى الخلف وهي تنفلت منه، لكنها ترنحت وكادت تسقط أرضاً لأنه كان قد تركها هو أيضاً.

فقال ساخراً: «يمكنني أن أوجه لك السؤال نفسه، لكنني أعرف الجواب. لقد رأيته في وجهك عندما قدمتنا تيريزا إلى بعضنا البعض. بدوت شاحبة الوجه ومذعورة للغاية. ما كانت المشكلة؟ هل خشيت أن أكشف للناس أن الطبيبة الجادة التي تكرس نفسها لخدمة المرضى، كانت ذات يوم عارضة أزياء مستهترة».

لم تستطع روز أن تجيب. لقد أمضت الأربع والعشرين ساعة الماضية في خوف دائم من أن يتذكرها. لا، لم يكن ذلك مجرد خوف، بل حالة من الرعب والتوتر العصبي. والآن وقد عرفها، أصابها الخرس.

ـ عند وصولك، كنت أراقب من النافذة. ظننت أنني عرفتك، لكن شعرك جعلني أشك في ذلك لحظة. كان قصيراً مستقيماً فأصبح طويلاً جعداً، وأقل دكنة. أجمل مما كنت عليه في التاسعة عشرة من عمرك، أما قوامك...».

ونظر إلى جسمها، ثم عاد ينظر إلى وجهها: «وقد امتلأ جسمك قليلاً ولكن بشكل مثير».

اكتسحتها ذكريات مريرة للأشهر القليلة التي مرت بعد أن تركها. يومها تأخر جسمها عن النمو بسبب معاناتها. فقد امتلأ صدرها لكن خصرها بقي نحيفاً.

فقالت له بجمود: «أنت تعني أنني سمينة».

ـ لا.

قال هذا وهو يرفع يده نحوها. فشهقت وضربته على يده تبعدها عنها وقد توتّر الجو فجأة: «دع يديك لنفسك!».

فضحك بنعومة: «يا لك من متأهبة للدفاع».

ثم قال فجأة بابتسامة متوعدة: «نعلم نحن الإثنان، أن بإمكاني أن أجعلك تستسلمين لي بدون وعي في دقيقة. فبعد أن أظهرت لك حبي ورغبتي بك ذات مرة، قفزت إلى السرير مع رجل آخر قابلته بعدي لأنك لم تستطيعي منع نفسك».

شعرت بدمها يغلي لظلمه لها بهذا الشكل: «كيف لك..».

الغضب العنيف جعل يدها تندفع إلى وجهه بقوة، لكنه أمسك بمعصمها بقبضة من فولاذ، ولواه إلى خلفها، وهو يجذبها إليه: «لا، يا جميلتي، أنا لن أحضر العشاء ودمغة كفك على وجهي. ولكن علينا أن نتحدث مع بعضنا البعض».

أغمضت روز عينيها وعدّت بصوت خافت إلى العشرة، إنها لن تحقّر نفسها بالجدل حول الأخلاق أو عدمها مع حقير متغطرس مثله. فهي تعلم أنها إذا سمحت لنفسها بأن تتحداه بالنسبة إلى معرفتها السابقة ستحل الكارثة وستنتهي هي بالعويل والبكاء. فقد كان جرحها بالغ العمق.

وببطء وألم، استطاعت أن تسيطر على نفسها، ففتحت عينيها ورمقته بنظرة: «إذا أردت أن نتكلم، نكلم إذن. لكنني، شخصياً، أظن أن ليس لدينا ما نقوله لبعضنا البعض. لقد تقابلنا مرة منذ وقت طويل، ثم افترقنا،

وسار كل منا في طريقه».

شعرت بالزهو لقدرتها على السيطرة على طبعها. ورغم ارتجافها من الداخل، فقد تماسكت وهو يشدّها إليه. لم تعرف ما هي لعبته، لكن شعوراً كريهاً تملكها بأن ما سيقوله لن يعجبها.

هزّ كتفيه بخفة، فارتفعت كتفاه القويتان تحت قميصه الناعم الأسود، وعاد وجهه الوسيم إلى جموده: «كما قلت، كان ذلك منذ وقت طويل، والماضي مضى. الحاضر هو الذي يهمني».

وجفّ فمها: «ماذا تريد؟».

نظر إليها متأملاً عينيها اللتين لم تمنحاه أي نظرة دافئة، والتوت شفتاه بابتسامة قصيرة قاسية أفزعتها. وأخيراً رفعت يدها الطليقة ودفعته من صدره ثم أخذت تقاومه. ولكن الأوان كان قد فات، فقد طوقتها ذراعاه بقسوة لعانقها عناقاً لم تذق مثله أثناء السنوات الماضية.

بدأ عناقه بشدة، بقسوة وحشية صدمتها.

ثم أخذ يخفف من ضغطه حتى أصبح العناق ناعماً... عذاباً مخدراً.

أحس خافيار بانتصاره فأبعدها عنه برفق، عند ذلك أدركت روز ما معنى الخوف الحقيقي. كيف يخونها جسدها بهذه السرعة؟ لم تجرؤ على التفكير في ذلك... : «أظن من الأفضل أن تذهب الآن...».

قالت هذا من دون أن تنظر إليه. فأمسك بذقنها وأمال رأسها إلى الخلف. واستقرت عيناه القاسيتان على عينيها الخائفتين بشيء من الرضى.

ـ تسألينني ماذا أريد؟ أنت تعرفين ما يريده أي رجل ينظر إليك. لكنني أريد أكثر من ذلك.

قال هذا ساخراً، فقالت بصوت فاتر خال من التعبير:

ـ أنت تثير اشمئزازي وأنا أكرهك. ولا صلة لي بأي فكرة جنونية قد تخطر ببالك.

لقد أهانها حين وصفها بأنها منحلة، وكان يعني أنها أقامت علاقة مع عشرات من الرجال. رغم أنه هو نفسه زير نساء. يا له من وقح!.

ـ على العكس، فأنت لك كل الصلة. أريدك أن تكوني زوجتي.

قال هذا بلهجة عادية وكأنه يسألها عن الوقت.

فتحت فمها، وشمرت بعينيها تكادان تخرجان من محجريهما وهي تحملق فيه مذهولة: «هل تمزح أم أنك مجنون؟».

ـ لا، بل أنا شخص منطقي. أبي مريض، وقد أصبحت أيامه معدودة. الأشهر القليلة الأخيرة من حياته ستكون أسهل إذا اطمأن بأنني متزوج.

ـ ليس مني!

وهزت رأسها بالنفي وهي تزيح يده عن ذقنها، فهي لم تعد تلك المراهقة الحمقاء الغارقة في الحب. إنها الآن امرأة ناضجة ذكية، والأمر لا يتطلب أن تكون بذكاء آينشتاين لكي تدرك أنه يريد أن يعبث بها كما فعل من قبل.

ـ هذا مؤسف! كنت أظن جيمي وآن مناسبين لبعضهما البعض.

تحولت العينان الخضراوان مجفلتين إلى وجهه القاسي فرأت التواء فمه الساخر: «بقليل من الإقناع سوف يتخلى جيمي عن فكرة الزواج في أيلول. وأظن أنه سيقرر تأجيل ذلك الموعد إلى ما بعد تخرجه من الجامعة. وأثناء ذلك، سأحرص أنا على أن أجعله يذوق طعم الحياة. لقد أمضى في الدراسة زمناً طويلاً وآن له أن يستمتع بلذائذ الحياة لفترة. آسف لأجل ابنة خالك ولكن لا شك أنها ستجد رجلاً آخر تحبه».

ـ أنت... أنت...

لم تستطع أن تجد صفة من السفالة بحيث تصلح لأن تلصقها به:

لم تصدق أنه قد يذهب في محاولته إلى ذلك الحد من السفالة بغية تحقيق غاياته. لكنها عادت وفكرت بوضوح، ثم قالت: «لا! إنهما يحبان بعضهما البعض. لن يسمحا لك بذلك».

لن تتزحزح عن موقفها. إي نوع من الحمقى يظنها؟

ـ إذا أردت أن تغامري بسعادة ابنة خالك... هذا حسن إذن. لكننا، نحن الإثنين، نعرف أن غرام الشباب متقلب.

قال هذا رافعاً حاجبه بسخرية. إذا كان جيمي يشبه خاله خافيار فالأفضل لآن أن تتركه منذ الآن. كانت روز على وشك أن تقول هذا عندما تذكرت حديثها مع آن الليلة الماضية خلال حفلة العشاء. فقالت من دون تفكير: «أنت تعطيه مصروفه؟».

ـ نعم. والقرار يعود إليك. إذا وافقت على الزواج مني، يحتفظ جيمي بمصروفه، ثم يزداد هذا المصروف ليناسب وضعه الزوجي القادم. أعرف أن ابنة خالك ستسرّ بذلك، وإلاّ...

وهز كتفيه مرة أخرى وكأنه يقول: ومن يهتم؟

من المؤكد أن ذلك الرجل، أسود القلب، الذي يحدّق في روز بعينين باردتين ساخرتين، لا يهتم على الإطلاق بمشاعر الآخرين.

* * *

٦ ـ سجن من ذهب

ـ ولكن لماذا أنا بالذات؟

تساءلت روز بصمت تقريباً، وعقلها الذكي يعمل بسرعة فائقة. لم تجد الأمر مفهوماً. ذلك أن خافيار يمكنه أن يحصل على أي امرأة يريدها، فهو إذن ليس بحاجة إلى أن يبتز امرأة لكي تتزوجه: «لقد قلت بنفسك إنك رجل تقليدي. فلماذا إذاً لا تتزوج من فتاة إسبانية شابة؟ أنا واثقة أن هناك عشرات النساء اللواتي يتلهفن إلى الحصول على حظ الزواج منك».

ـ لقد جربت ذلك مرة. هذه المرة أريد امرأة ناضجة لها اهتماماتها الخاصة، وهكذا لن تصطدم اهتماماتها باهتماماتي. امرأة لديها أهدافها الخاصة. أريد ترتيباً يخدم المصلحة المشتركة بدون ارتباط عاطفي. امرأة تدفىء فراشي من دون أن تدعي بأنها تدفىء قلبي. ولأنني أعرفك جيداً، هذا يجعلك في نظري أصلح النساء لذلك.

إنه لم يعرفها على الإطلاق، فهما لم يلتقيا سوى مرة واحدة، وكانت فتاة بريئة ساذجة. ومع ذلك لم يمنعه ضميره من أن يصفها بأنها امرأة منحلة خلقياً. لقد قال ذلك عدة مرات. أما لماذا فعل ذلك، فهذا ما لم تعرفه بعد!

لقد جرحها في العمق وقد أغضبها تجريحه لها، أغضبها من نفسها بالدرجة الأولى، كما جعلها تتميز غيظاً وغضباً منه. ونظرت إلى وجهه بعنف.

تصريحه الوقح هذا وغطرسته غذيا عنف غضبها: «إذهب إلى جهنم وخذ معك عرض الزواج الأبله هذا».

لن تتكرم عليه بجواب. ولكن تحت غضبها هذا تحرك إحساس بالخوف. ضحك خافيار بخشونة: «قد أذهب إلى جهنم، كما قلت لي بلباقة. ولكن صدقيني، أيتها السيدة، سوف آخذك معي. أنت مدينة لي، وأنا أسترد دوماً ديوني».

كان قريباً منها... أقرب مما يجب...

ـ أنا مدينة لك؟

هتفت بذلك غير مصدقة. هذا الرجل الذي سبّب لها من الألم وتحطم القلب أكثر مما كانت تتصوره، لديه الوقاحة لأن يقول إنها مدينة له؟ لا بد أنه مجنون...

التوى فمه بابتسامة جمدت الدم في عروقها، وقال ببطء بلهجة الوعيد:

ـ الأفضل أن تصدقي ذلك. لقد حدثني سبستيان بكل شيء عن لقائكما، وكيف أنك ارتميت بين ذراعيه بعد أن تركتك مباشرة. وفري على نفسك تمثيل دور البراءة، فهذا الأمر لا ينجح مرتين.

ـ حاول سبستيان أن يخفف عني.

لم تدرك روز أنها بقولها هذا قد اعترفت، ومن دون وعي منها، بأنها كانت بين ذراعي سبستيان، لم تدرك ذلك لشدة غضبها: «كان سبستيان صادقاً معي على الأقل. أخبرني بالحقيقة التي هي أقل ما يمكن أن يقال عنك. وهي أنك ضيق الأفق بالتزامك بالأعراف والتقاليد وأخلاق قطط الأزقة. فليساعد الله زوجتك المسكينة، لا بد أنها كانت تعيش في جهنم».

وسرعان ما أدركت أنها تجاوزت الحد، فقد امتلأت عيناه بغضب بارد كالثلج: «ليس لك شأن بزوجتي الراحلة. ولكن بصفتك زوجتي المستقبلية، الأفضل لك أن تتعلمي شيئاً من حسن السلوك».

ـ في أحلامك!

قذفته بهذا الجواب ثم ارتجفت وهي ترى ملامحه الكئيبة الحاقدة:

ـ فكري في الأمر، يا روزالين.

وضغط كتفيها بيديه بقوة آلمتها: «وأنا واثق من أنك ستوافقين».

أخذت تنظر إليه وهو يزداد اقتراباً منها، وقد سمّرتها الصدمة. وانتابها شعور بدائي غادر. جاء عناقه متملكاً، وعنيفاً تقريباً... بعنف النار التي اشتعلت في حواسها.

حاولت أن تبقى سلبية إزاء هذا الهجوم الضاري. لكنها وشعرت بنفسها كمن يعود إلى بيته بعد غياب عشر سنوات طوال ومال جسدها عليه، وبأنين أجش، أحاطت رقبته بذراعيها.

رفع خافيار رأسه، فأنزلت روز ذراعيها عن رقبته، وانكمشت خزياً لضعف إرادتها الذي جعلها تستسلم. وضع يديه على كتفيها وأبعدها عنه برفق وهو ينظر بعينين ضيقتين إلى احمرار الخجل في وجهها: «كما ظننت تماماً. بعض الأشياء لا تتغير أبداً. سأعود إليك عند السابعة مساءً لأخذ الجواب، ولأرافقك إلى العشاء».

وابتسم ابتسامة ذات معنى: «ربما كنت تحبين أن تتحدثي قليلاً مع آن أولاً. ليس لدي شك في أنها ستحبّذ ارتباطنا».

شحب وجهها، وشعرت بالمذلة. إنه على صواب من الناحيتين؛ بعناق واحد سقطت ضحية رجولته الفائقة. وآن مصممة على الزواج من جيمي...

نظرت روزالين إليه بعينين متسعتين عنيفتين مليئتين بالإحباط وهو يتوجه إلى الباب.

التفت يواجهها وقد سقط عن وجهه القناع الساخر الناني ليكشف عن غضب عنيف: «ولا تقترفي خطأ التبخيس من شأني هذه المرة. يا روزالين. أنا أعني كل كلمة أقولها. لم أكن جاداً في حياتي قط أكثر مما أنا الآن».

ثم غادر الغرفة بعد أن أغلق الباب خلفه بهدوء.

لم تعرف روز كم مضى من الوقت وهي تنظر إلى الباب.

لم يساورها الشك أبداً في أنه ينوي تنفيذ تهديده بتدمير خطبة جيمي وآن. لكن الأسوأ هو معرفتها أن بإمكانه أن يفعل ذلك. إنها تحب جيمي وتعلم أنه مغرم بآن. لكنه صغير السن، فهو لا يزال في الرابعة والعشرين من

عمره، ولن يتمكن من مقاومة الإغراءات التي بإمكان رجل محنك مثل خاله خافيار أن يوفرها له. التفريق بين الحبيبين لن يأخذ من خافيار وقتاً طويلاً، فالتهديد بقطع التمويل عنه جعل ميزان القوة في يده.

نظرت في أنحاء الغرفة، ثم أرادت أن تبكي. وفي الواقع، اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها مسحتها بيدها بعنف. ذات يوم كان الزواج من خافيار أغلى أحلامها. لكنه لم يعد كذلك الآن...

لقد سارت في ذلك الطريق مرة من قبل، فبعد عودتها إلى إنكلترا منذ عشر سنوات شعرت بالشوق إليه. كانت صورته تملأ أحلامها كل ليلة، وظهر الشحوب على وجهها. وفي قنوط الوحدة، فكرت بأن تتصل به وذلك بعد ثلاثة أشهر تقريباً من عودتها. ابتلعت كبرياءها ثم اتصلت بالشقة في برشلونة، فرد عليها سبستيان، ووعدها بأن يخبر خافيار أنها تريد أن تتحدث إليه.

لكن سبستيان عاد للاتصال بها بعد نصف ساعة ليخبرها بأن خافيار سيتزوج بعد أسبوع، وليس لديه ما يقوله لها. وكانت لدى سبستيان أوامر مباشرة بألاّ يعطيها عنوان خافيار أو رقم هاتفه.

شعرت بالصدمة وخيبة الأمل، وظل الألم يتملكها بسبب ذلك طوال تلك السنوات العشر...

بدا الحزم في عينيها. تذكرها الماضي لن يحل مشكلتها. دخلت الحمام، ومن نظرة سريعة إلى غرفة الملابس أدركت أن هناك من أخرج أمتعتها من الحقيبة. دخلت الحمام وفتحت الصنبور على الحوض ثم خلعت ملابسها وعقدت شعرها بالدبابيس عند قمة رأسها، ثم خطت إلى الحوض الممتلىء بالماء، وما لبثت أن أسندت رأسها إلى الخلف.

تذكرت مشاجرتها مع خافيار في الطائرة وتذكرت اعترافه (نهم للسيطرة والتسلط) لم يكن يمزح إذاً! عادت بذاكرتها إلى الأربع والعشرين ساعة الماضية، ولم تصدق كيفية احتياله عليها لتجد نفسها أخيراً في هذا الوضع.

إنه رجل حقير مخادع، لكن إطلاق النعوت عليه لن يحل المشكلة.

وبيطء، وقفت وخرجت من الحوض، ثم تناولت منشفة لفّت بها جسدها وهي ترتجف. تراءى لها وجه آن وهي تتوسل إليها لتبقى نظيفة مع هذا الرجل.

لن تستطيع أن تجد مخرجاً لمشكلتها إلا إذا جارته في لعبته وتصرفت معه بمثل القسوة التي يتصرف هو بها!

زمّت شفتيها بصلابة، ثم أخذت تجفف نفسها. ومن غرفة الملابس اختارت ملابس داخلية سوداء، وثوباً أسود. وابتسمت بجفاء. من مجموعة الملابس التي أحضرتها معها، بدا اللون الأسود أكثرها ملاءمة.

بعد عشر دقائق، عادت إلى غرفة النوم. ما إن دخلت حتى جمدت مكانها. كان خافيار واقفاً عند النافذة، مرتدياً سترة عشاء بيضاء وبنطلوناً أسود وقميصاً أبيض وربطة عنق حمراء على شكل فراشة.

بدا وسيماً للغاية، لكنها حدقت في جانب وجهه الخشن باشمئزاز ظاهر: «في العادة يقرع الناس الباب قبل الدخول إلى غرف الآخرين».

ـ فعلت ذلك.

قال ذلك وهو يستدير ليواجهها. شملها بنظراته الغامضة. لقد تركت شعرها منسدلاً على شكل خصلات كثيفة حمراء، أما قبة ثوبها الحريري فكانت عبارة عن ربطة مطرزة بالخرز الأسود تشكل عصابة حول عنقها. كما كانت التنورة متسعة قليلاً وتنتهي فوق ركبتيها بعدة إنشات، وقد لبست حذاء أسود منخفض الكعب مظهراً أظافر أصابع قدميها المطلية. وقد طلت أصابع يديها باللون نفسه وكذلك شفتيها الممتلئتين.

لقد استخدمت كل مهارتها القديمة في الماكياج، التي اكتسبتها من عرض الأزياء. فوضعت كريماً مرطباً ملوّناً على بشرتها، فهي تحتاج إلى بعض اللون لكي تبدو متوهجة بالصحة. كما وضعت شيئاً من الكحل يزيد من جمال عينيها واتساعهما، بالإضافة إلى ماسكارا لأهدابها. وهكذا أصبحت جاهزة للمواجهة.

همّت بالسير أمامه إلى الباب، لكنه وضع يده على ذراعها يوقفها: «لا

تسرعي. أريد جوابك أولاً. هل ستتزوجينني؟».

لكم توسلت الله أن تحدث معجزة تجعله يعتبر حديثهما السابق لم يكن سوى رؤيا أو تخيلات، لكن توسلاتها لن تنفع.

ـ إسمع، خافيار.

حاولت أن تتكلم معه بينما لم تكن تتمنى في الحقيقة، سوى البصق في وجهه: «يمكنني أن أفهم أنك تريد أن تجعل أباك سعيداً، لكنني لا أريد أن أتزوج. أنا طبيبة، ولدي مهنة».

ـ طبيبة من دون عمل، حالياً. آسف روزالين لكن اعتراضاتك تافهة. أنت ما زلت ترغبين بي. لقد عرفت ذلك في اللحظة التي تحدثت فيها إليك في منزل تيريزا. نظرت إليّ بعينين متسعتين والنبض في عنقك يخفق.

ووضع يده على ذلك النبض: «نعم، هذا ما كان يخفق كما يخفق الآن. كما أنني أريد زوجة. و(نعم) هو الجواب الوحيد الذي أريده».

توهج الغضب والألم في عينيها وهما تستقران على وجهه الأسمر، لكنها جاهدت للسيطرة على مشاعرها.

ـ دعني أفهم جيداً ما تقوله. هل تعني أن عليّ أن أمثل دور زوجتك لكي يكون أبوك سعيداً، ولا شيء أكثر من ذلك، بينما تتكفل صديقتك برغباتك الأخرى؟

ونظرت إليه لكن عينيه لم تفصحا عن شيء.

أنزل يده عن ذراعها. فحدقت فيه بصلابة مدة طويلة: «ولماذا لا تتزوجها هي؟».

رفع حاجبه ساخراً: «أنت لست ساذجة إلى هذا الحد يا روزالين. تعلمين أن ذلك لا يتوافق مع تقاليدنا».

لم تعرف روز لماذا لم تشعر بالدهشة لقسوته هذه وعدم مراعاته للمشاعر. لقد عانقها ليخضعها له فقط، ليثبت تفوق رجولته عليها، بينما كانت هي تضلل نفسها بأنه يريدها حقاً، فيا لحماقتها!

إنه لم يرغب فيها وهي في التاسعة عشرة، فكيف يرغب فيها بعد عشر

سنوات؟ ربما صديقته امرأة شابة مذهلة الجمال ومستعدة تماماً لتلبية رغباته من دون اعتراض.

ـ هل وافقت؟

قطع عليها أفكارها بصوته العميق، فنظرت إليه وكان هو ينظر إلى ساعته بشيء من فروغ الصبر. فسألته وما زالت غير مقتنعة: «متى سيكون العرس؟».

لم تستطع أن تفكر في حل بديل لا يترك آن محطمة القلب.

ـ بعد أسبوعين أو ثلاثة. فليكن تصرفك هذه الليلة نحوي ودياً تماماً كما هو نحو جيمي وآن. وبعد أيام سنبدأ بإيهام الآخرين أن بيننا علاقة بتبادل العناق أحياناً أو بعض الملامسات. وسيرى أبي ذلك حتماً. وفي آخر الأسبوع سأعلن عن زفافنا. يمكنك أن تتركي لي بقية التفاصيل.

فسألته بجفاء: «هل لدي خيار؟».

تأملها بعينيه الفولاذيتين من دون رحمة: «لا، إذا كانت سعادة آن تهمك كما تريدينني أن أعتقد فأنت ماهرة في التظاهر بمشاعر أنت لا تشعرين بها حقاً».

لوت شفتيها بابتسامة مرة. أن تتزوج رجلاً مثل خافيار، يشك في إخلاصها، في عقيدتها، ومشاعرها، هو شيء يدعو إلى السخرية حقاً. وقالت بفتور: «لا بأس، أنا موافقة».

وضع يده العريضة على ظهرها: «سيدة عاقلة».

قال هذا بنبرة واضحة من الاعتزاز والرضى، وهو يستعجلها للخروج إلى الطابق الأسفل. وعندما اقتربا من باب الصالون، ابتعدت روز عنه. لقد وافقت على ابتزازه لها، لكنها لم تصبح جاهزة بعد لتمثيل دور الأنثى المغرمة المتألقة العينين. إنها غاضبة للغاية!

دخلت إلى الصالون الفسيح أمام خافيار رافعة الرأس، ثم أومأت تحيي الخطيبين الشابين السعيدين اللذين يجلسان بجانب بعضهما البعض على الأريكة. ثم تحول نظرها إلى رجل وقف لرؤيتها، وقد كان جالساً على

كرسي عالي الظهر. أمسك الرجل بعصاً من الخيزران، ذات مقبض من العاج ثم تقدم نحوها. كان طويل القامة لكن كبر السن والمرض أحنى كتفيه اللتين كانتا يوماً ما مزهوتين. كان يرتدي بذلة عشاء سوداء تبدو متهدلة على جسمه النحيل، نظرة واحدة إليه أنبأت روز أن هذا الرجل مريض جداً، وأن تهذيباً فائقاً فقط هو الذي جعله يقف على قدميه ساعة دخولها. وعلى الفور سارت نحوه وهي تمد له يداً نحيفة أنيقة: «لا بد أنك الدون بابلو فالدزبينو».

الحمد لله أنها تذكرت اسمه. هنأت نفسها لذلك: «أنت جد جيمي. أنا الدكتورة روزالين ماي، ابنة عمة آن ورفيقتها الحارسة لمدة أسبوع».

تألقت فجأة العينان البنيتان الكئيبتان في ذلك الوجه الذي فضحه الألم:

ـ المعذرة يا عزيزتي، لكنك أصغر وأجمل من أن تكوني مرافقة حارسة. وفي الواقع، على الأمهات أن يخفن من أن تخطفي أنت الخطيب. أليس كذلك يا ولدي؟.

وضحك بصوت خافت، وانتبهت روز فجأة إلى أن خافيار كان قد تقدم ووقف بجانبها. نظرت إليه، فإذا به يبتسم لأبيه بحنان لم يدع لديها شكاً في مدى حبه له. رغم نفورها من فكرة إرغامها على هذا الزواج، تفهمت فجأة أسباب خافيار. لقد أحبت هذا الرجل العجوز.

فأجاب خافيار: «ربما أنت على صواب يا أبي. ولكن إجلس من فضلك ودعني أحضر الشراب لضيوفنا».

واتجه إلى الجهة الأخرى من الغرفة، وسأل روز عما تريد أن تشرب.

فأجابت بنعومة ولكن من دون أن تحوّل عينيها عن الرجل العجوز:

ـ عصير الأناناس من فضلك.

عاد الدون بابلو ليجلس في كرسيه ثم نظر إلى روز: «أنت طبيبة ولكنك لا تشبهين أياً من الأطباء الذين عرفتهم. صدقيني لقد عرفت العشرات منهم على مرّ السنين، وأنا واثق أنني لو رأيت طبيبة مثلك لكنت سأشفى على الفور».

فقالت باسمة: «أنت، يا سيدي، متملق للغاية».

ـ هذا كل ما أستطيع عمله الآن.

ردّ عليها الرجل العجوز بغمزة من عينيه انفجرت لها روز ضاحكة. فقال خافيار وهو يناولها كأسها: «إنه مغازل رهيب. لا تشجعيه».

تناولت منه الكأس، واحتكت أصابعها بأصابعه بشكل خفيف، ما أرسل في كيانها كله شوقاً غير مرغوب به. عليها أن تتغلب على هذا الشعور الذي يتملكها لأقل لمسة من خافيار. حدثت بهذا نفسها بحزم، فقد قال لها بوضوح أنه يريدها فقط زوجة ليسّر والده. وهكذا عادت تشارك بالحديث العام، وهذه الفكرة في رأسها.

أعلن رئيس الخدم ابتداء العشاء فانتقلوا جميعاً إلى غرفة الطعام.

نظرت روز حولها وقد تملكها شيء من الرهبة للترف والأناقة اللذين يحيطان بها. بدت الستائر واللوحات المعلقة على الجدران كأنها تنتمي إلى عصر آخر، أما المائدة فمن الاتساع بحيث تكفي لعشرين شخصاً، وقد وضع فوقها أوان من الخزف الصيني إلى جانب أدوات المائدة الفضية.

احتل الدون بابلو كرسيه عند رأس المائدة، وأشار إلى أن تجلس آن إلى يمينه وروز إلى يساره وجيمي بجانب آن، ما أبقى لخافيار المقعد إلى جانب روز.

مرّ العشاء على ما يرام. ساعدت خادمة فتية ماكس في تقديم الطعام. سلطة طازجة مع المكسرات، تبعها لحم عجل مطبوخ على الطريقة الأندلسية مع زيت الزيتون والبندورة والبهارات والثوم والبصل.

كان الدون بابلو رجلاً ذكياً سريع البديهة ذا معلومات واسعة عن التاريخ المحلي، ومضيفاً ممتازاً. لم يتوقف الحديث بينهم حتى دخل ماكس فيما هم ينهون تناول الحلوى، فأخبر خافيار بأن هناك مكالمة هاتفية له. وقف خافيار وقبل أن يخرج من الغرفة أوقفه أبوه بكلمة واحدة. تحدث الأب والإبن بإسبانية سريعة أخذت تزداد حرارة ثانية بعد أخرى.

ـ أعتذر لسوء تصرف ابني.

قال الدون بابلو هذا بكبرياء هادئة، مخترقاً الصمت السائد وقد تخضب وجهه الشاحب بالاحمرار.

فاندفعت روز تقول وقد ساءها أن يتكدر الرجل العجوز: «لا تقلق، إنه مجرد اتصال هاتفي. إن لديك بيتاً رائع الجمال يا دون بابلو، ولا بد أن له تاريخاً مجيداً».

لقد تعمدت تغيير الموضوع، لكن ذلك كان أسوأ ما كان يمكن أن تقوله.

ـ نعم. أسرة ڤالدزبينو أمضت في هذه البقعة خمسمئة سنة. لقد تغيّر المنزل ولكنه ظل دوماً ملكاً للأسرة. والآن، لسوء الحظ، يبدو وكأن اسم ڤالدزبينو سيموت.

عاد خافيار في الوقت الذي كان فيه أبوه يتكلم، فألقى على العجوز نظرة كريهة، ثم قال: «أرجو المعذرة لأن علي، مع الأسف، أن أخرج لفترة قصيرة».

وجه كلماته هذه إلى جيمي وآن، ولم يكد يلقي نظرة على روز، ثم قال لأبيه شيئاً بعنف وغادر المكان.

فقال الأب وهو يشير برأسه نحو الباب الذي خرج ابنه منه: «أترون ما كنت أعنيه؟ يتضح لي أكثر فأكثر أن ابني لا يريد أن ينجب لي وريثاً. في أول ليلة له في البيت، يترك ضيوفه...».

وسكت فجأة وكأنه أدرك أنه قال أكثر مما يجب، ثم قرع الجرس لماكس. وعندما جاء رئيس الخدم قال العجوز فيما كان ماكس يساعده على الوقوف: «آسف لاضطراري إلى أن أتركم الآن. أنا متعب جداً، ولكنني أرجوكم أن تستمتعوا بسهرتكم».

بعد خروجه قالت آن وهي تضحك بصوت خافت: «أوه... يا لها من مأساة!».

فقال جيمي: «إنسي ذلك. طالما رأيت هذا من قبل. جدي وخالي دوماً يتجادلان. إنهما متشابهان إلى حد لا يمكنهما معه أن يتعايشا».

أما روز فقد تساءلت عما إذا كان بإمكان أي شخص على الكرة الأرضية أن يعيش مع خافيار . . . وسألت جيمي وقد تملكها الفضول لمعرفة ما حدث: «أنت تتحدث الإسبانية يا جيمي. لماذا كانا يتجادلان؟».

فقال جيمي ضاحكاً: «غضب جدي لأن خالي ذهب ليقابل صديقته، فهي التي اتصلت به».

قرصت آن جيمي وهي تقول مازحة: «الأفضل لك ألاّ تتشبه بخالك وإلا خنقتك».

كانت روز تدرك شعورها هذا، وقد تمنت في تلك اللحظة لو أن بإمكانها أن تخنق خافيار.

راحت تتأمل الخطيبين، وأدركت أنها أصابت في قرارها قبول الزواج من الرجل. ذلك أن جيمي يحب آن وهي لن تحتمل رؤية حيوان زاحف مثل خافيار يدمّر الخطيبين الشابين.

بعد تناول القهوة، حيت روز الشابين تحية المساء وصعدت إلى غرفتها بحجة إصابتها بالصداع. لقد كان يوماً جهنمياً. لا شك أن خافيار يستلقي الآن بارتياح بين ذراعي صديقته.

أما هي فلم تجد سبيلها إلى الراحة وهي تستعد للنوم. بعد أن رأت الدون بابلو أدركت جيداً لماذا يريد خافيار هذا الزواج. ولكن، فليساعدها الله! كيف يمكنها أن تعيش مع رجل لا يرغب بإقامة علاقة معها بينما مجرد لمسة منه كفيلة بإشعالها؟

ارتدت بيجاما قصيرة بيضاء اللون، وأخذت تدور في أنحاء الغرفة الفسيحة بقلق، فقد منعتها شدة التوتر من النوم. شعرت بأنها أشبه بطير في قفص من ذهب. كان عليها أن تبقى في الطابق الأسفل مع الخطيبين، وهي، على كل حال، مرافقتهما الحارسة. ويا لها من مزحة! فقد أوهمها خافيار بذلك ليحضرها إلى إسبانيا.

وقفت بالقرب من النافذة ونظرت إلى الأسفل نحو الفناء، فإذا بها ترى سيارة خافيار تدخل من خلال المدخل. لقد عاد باكراً من موعده مع

صديقته. نزل من السيارة ورأسه مرفوع إلى النافذة التي كانت تقف خلفها وكأنه أحس بوجودها. تراجعت روز بسرعة، ولكن ليس قبل أن ترى أنه كان من دون سترة ولا ربطة عنق.

لم تكن عودته مبكرة في الحقيقة. لقد خرج منذ ساعتين. وحدثت روز نفسها أن وجود صديقته في حياته قد أراحها، متجاهلة الشعور بالفراغ الذي تملكها. فذلك يؤكد ما قاله لها خافيار. إنه يريد زوجة لا تتدخل في حياته. زوجة لديها اهتماماتها الخاصة. وهي ستعود إلى مهنتها مرة أخرى في الوقت المناسب. بعد أن رأت الدون بابلو أحزنها أن تعترف بأن الرجل لن يتمكن من العيش مدة الثلاثة أشهر أي حتى تنتهي إجازتها. حاولت أن تحمل نفسها على التفكير بشكل إيجابي. فالزواج من خافيار سيجعل ثلاثة أشخاص على الأقل سعداء، آن وجيمي والدون بابلو. فكيف يكون هذا أمراً سيئاً؟ كما أنها ستمضي عطلة طويلة في إسبانيا، ولن تكون مضطرة إلى النوم مع خافيار . . . أغمضت عينيها وحاولت أن تنام.

تململت في فراشها وهي تحاول أن تسترخي، لكن عضلاتها ظلت متوترة، ولم تفهم سبب هذا التوتر. وأخيراً دفنت رأسها في الوسادة داعية الله أن يساعدها على النوم.

في الصباح التالي قادتها الأصوات إلى غرفة الإفطار. بدا خافيار فياض الرجولة، وابتسم لروز عندما دخلت: «صباح الخير، روزالين. تبدين رائعة اليوم».

وأخذت نظراته تجري بسرعة فوق جسدها المتناسب بإعجاب الرجل الجريء. وكانت تلبس ثوباً من القطن منقوشاً بألوان زاهية.

يبدو أن الغزل المكشوف قد بدأ الآن، كما أخذت روز تفكر ساخرة، ولكن، بما أن ذهنها كان مليئاً بوعدها، ردت: «شكراً، خافيار». رغم أنها كادت تختنق لنطقها باسمه.

- بكل سرور، لكنني آسف لعدم إمكاني قضاء الصباح معك.

ثم التفتت إلى جيمي وآن اللذين كانا قد جلسا إلى المائدة: «ومعكما

أنتما الإثنين طبعاً». أنبأتها النبرة الساخرة في صوته بأنه يشعر بغضبها الكامن: «يمكنكم أن تمضوا الصباح أنتم الثلاثة، في التفرج على معالم المدينة، ولكن احرصوا على العودة في الواحدة، لأننا سنذهب إلى المزرعة بعد الغداء».

كان هذا هو السبب الذي جعل روز الآن تذوب تحت شمس الظهيرة. هي ضائعة تماماً.

بدت سيفيل مدينة خلابة. القسم القديم منها مؤلف من خليط فوضوي من الشوارع الضيقة. وفيما هم يجوبون تلك الشوارع اختفى جيمي وآن فجأة، تاركين روز واقفة في شارع تحفه أشجار البرتقال وهي تتساءل أين هي، وأين ذهبا. بقيت تبحث عنهما لأكثر من ساعة، إلى أن شعرت بالعطش وقد اشتد عليها الحر وتملكها الضجر. سارت في شارع ضيق آخر حتى رأت أخيراً امرأة تجلس بمفردها خارج أحد المقاهي. وقررت روز أن تفعل مثلها فجلست على كرسي أبيض من البلاستيك غير نظيف تماماً. خرج من المقهى رجل خشن المظهر نوعاً، فطلبت قهوة وكأس ماء.

بعد قليل، جاء رجل غريب وأخذ يتحدث إليها. ابتسمت له بسخافة من دون أن تكون لديها فكرة عما يتحدث عنه. ولكن عندما أمسك بذراعها، قفزت واقفة ونفضت يده عنها. ولم تنتظر النادل، بل اندفعت إلى داخل المقهى المعتم ثم وقفت أمام مكتب الدفع وفتحت حقيبة يدها.

كيف أمكنها أن تكون بهذا الغباء؟ وجدت في حقيبتها عدة جنيهات إنكليزية، ولكن لا نقود إسبانية. حاولت أن تعطي المحاسب شيكاً لكنه رفض ذلك. حاولت أن تفهمه أن ينتظر حتى تجد صرافاً يبدل نقودها بنقود إسبانية، لكنه لم يدعها تخرج من المقهى. أخذ يصيح بها غاضباً بلغته، ولم تستطع أن تميز من كلامه سوى كلمة (بوليسيا) فأدركت أنها تعني الشرطة. لقد أصبح الوضع مهدداً.

وعندما شعرت باليأس، ذكرت اسم خافيار ڤالدزبينو، والدون بابلو، وطلبت من الرجل بالإشارة أن يتصل بهما هاتفياً. رمقها صاحب المقهى

بنظرة ارتياب من أعلى إلى أسفل، وكرر متسائلاً: «خافيار ڤالدزبينو؟». ثم أشار يطلب اسمها.

ـ الدكتورة روزالين ماي.

تنهدت بارتياح وهي تراه يرفع سماعة الهاتف. تبع ذلك حديث سريع بالإسبانية، وبعد دقائق تغير الوضع بشكل أثار حيرتها. ابتسم الرجل وناولها السماعة.

ـ ما الذي تفعلينه يا روزالين؟ وأين آن وجيمي؟

قال خافيار هذا هادراً، فأجابت بحدة وقد كرهت أن يصيح بها: «لقد فقدتهما».

ـ يا إلهي! لا يؤتمن عليك في الخروج، انتظريني حيث أنت. لا تتحركي ولا تتحدثي مع أي إنسان آخر. سيمدّك صاحب المقهى بما تريدين. أفهمت؟...

ـ نعم.

قالت هذا بوداعة إذ لم يكن لديها خيار آخر.

ـ والآن دعي صاحب المقهى يكلمني من جديد.

ما أن انتهت المكالمة الهاتفية، حتى دفعها صاحب المقهى إلى العودة إلى الخارج، حيث مسح لها المقعد وأشار إليها بالجلوس عليه.

ثم تملكها الهلع وهي ترى صاحب المقهى يجلس على كرسي بقربها، فشعرت كأنها تحت المراقبة.

تنفست الصعداء عندما اندفعت إلى الشارع بعد عشر دقائق سيارة فيراري حمراء، ثم توقفت خارج المقهى وصرير عجلاتها يرتفع عالياً، وقد سدّت الطريق الضيق. ابتسمت روز عندما انفتح باب السيارة بعنف ونزل منها خافيار.

إلا أن ابتسامتها سرعان ما تلاشت عندما رأت التعبير المتصلب الذي ظهر على وجهه، فأخفضت بصرها. كان يرتدي بنطلوناً تبنيّ اللون وقميصاً أخضر قصير الكمين.

ـ روزالين.

صرخ باسمها فرفعت بصرها إليه كارهة، فارتجفت لرؤية التعبير الذي بدا في عينيه. كلمة «غضب عنيف» ليست كافية لوصفه...

* * *

٧ ـ سيد العالم

بخطوتين واسعتين كان يقف إلى جانبها وعيناه تلتهبان غضباً ثم هتف بها ثائراً: «ما هو العمل الذي تقومين به؟».

ـ أنا...

ولم تستطع أن تكمل.

ـ إخرسي.

راح يتحدث مع صاحب المقهى، ثم أخرج من جيبه رزمة من الأوراق المالية ناوله إياها. بدا ذلك لروز كرماً سيئاً للغاية. تنازل بأن نظر إليها مرة أخرى: «هل أنت بخير؟».

سألها هذا بخشونة، وعيناه تتفحصان جسمها الرشيق بإمعان، فهزت كتفيها: «بأحسن حال، ما عدا أنني ضللت طريقي وكدت أذوب من الحر».

ـ أنت محظوظة لأن هذا كل ما حدث لك.

قال هذا ساخراً ببطء ثم قبض على ذراعها وأوقفها: «هيا بنا نذهب».

نظرت إلى صاحب المقهى بابتسامة أملت أن تبدو شاكرة، لكنها كانت ترتجف في داخلها، فقد وقف خافيار كصقر يهم بالانقضاض. بدا وجهه صلباً جامد التعبير، لكن عينيه الضيقتين كانتا تخترقان عينيها حتى الأعماق. كان قد أوقف سيارته في وسط الشارع فتسببت بتوقف السير، وفي وسط الصياح الغاضب وجلبة أبواق السيارات، دفعها إلى مقعدها في السيارة بقوة، وصفق الباب خلفها، ثم جلس خلف المقود لتنطلق بهما

السيارة بسرعة.

ألقت نظرة جانبية على جانب وجهه، باحثة عما تقوله. وهبطت عيناها إلى فتحة قميصه عند العنق فأدهشها أن ترى أن أثر الجرح القديم في فكه يصل إلى عظمة الترقوة. لم ترها قط من قبل، ثم أدركت أنها بالرغم من حرارة الجوّ، لم تر قميصه مفتوحاً عند العنق طوال العطلة الأسبوعية.

ـ كيف حصلت لك هذه الندبة؟

خرجت هذه الكلمات من فمها قبل أن تستطيع منعها. فقال بصوت بدا عالياً متفجراً في السيارة المقفلة: «بحق الله عليك، أنت تعشقين المخاطرة. أنت تعلمين جيداً سببها. وإذا كانت حياتك تهمك، إخرسي إذن. حتى نصل إلى البيت».

تعلم؟ ليس لديها أدنى فكرة. وهي قد سألته فقط لتخفف من هذا الجوّ المتوتر في السيارة: «آسفة لأنني تكلمت».

ساد بينهما صمت متوتر فيما السيارة تجتاز بهما الشوارع الضيقة. وشعرت روز بأن أعصابها المتوترة على وشك الانفجار. وقفت السيارة أمام الباب، فسحبها من السيارة، وعاد يجرها مرة أخرى صاعداً الدرجات إلى حيث البرودة في الداخل.

وقفت روز في وسط الردهة وقد سئمت من معاملته لها وكأنها تلميذة متمردة: «إسمع، لا يمكنك أن تلومني لأنني اضطررت إلى الاتصال بك لأن ليس لدي نقود إسبانية».

اشتدت أصابعه على ذراعها العارية، وقد أصبحت عيناه باردتين شاردتين على وجهها المتمرد: «إلى مكتبي».

أمرها بذلك من بين أسنانه المطبقة، وبعد ذلك بلحظة وجدت روز نفسها في غرفة تغطي جدرانها الكتب، بينما أقفل خافيار الباب بحزم خلفها.

ـ نعم، لقد ضللت طريقي وهذه ليست مشكلة كبرى.

قالت ذلك وهي تحاول أن تخفف من توتر الوضع، لكن ضغط يده

ازداد على ذراعها. ثم أدارها نحوه لتواجهه، وقال باحتقار: «ضللت طريقك في منطقة الضوء الأحمر، أم أنك كالماء وجدت طريقك بسهولة إلى حيث تنتمين؟».

بدا صوته منخفضاً خطراً، وكانت هي لا تزال مضطربة لذكره منطقة الضوء الأحمر عندما أضاف: «ماذا حدث؟ ألم يعجبك الرجل الذي اقترب منك؟».

ـ وكيف عرفت أن رجلاً اقترب مني؟

ـ كان من سرور صاحب المقهى أن يخبرني بذلك وطلب مني أن أدفع أجر الوقت الذي أمضيته أنت في إغواء الرجل في المقهى عنده.

أجابها بذلك بسخرية لاذعة. وشحب وجهها:

ـ أنت دفعت...

أخذت تحدق في ملامحه الخشنة لترى إن كان فيها أثر للمزاح: «لا، لا بد أنك مخطىء، لقد اخترت ذلك المقهى لأنني رأيت فيه سيدة تجلس بمفردها، وهكذا...».

وسكتت مذعورة من غبائها: «أتعني...» وشهقت...

ـ كانت تلك السيدة تنتظر عملاً بالضبط. وهي تدفع جزءاً من أجرها لصاحب المقهى لسماحه لها باستعمال مقهاه، وهذا ينطبق عليك أيضاً.

ـ آه، يا إلهي!

ولم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك بصوت خافت: «أتعني أنه كان يظنني أصطاد الرجال؟».

ثم انفجرت ضاحكة. خافيار ڤالدزبينو العظيم كان عليه أن يدفع نقوداً كأجر في مكان ترتاده بنات الهوى؟ لا عجب لغضبه البالغ هذا. وزمجر هو قائلاً: «لقد أضحكك الأمر، أليس كذلك؟ أتساءل إن كنت ستريته مضحكاً بهذا الشكل لو أن ذلك الرجل لم يقبل منك كلمة «لا» جواباً».

وبحركة بارعة، ترك يدها وجذب خصرها ليضمها إليه: «ماذا كنت ستفعلين؟».

وعندما فتحت فمها لتحتج شدها نحو صدره بقوة ما منعها من التفوه بكلمة.

أخبرها تعقلها ونضجها بأن تقاوم، فقد كان هذا مجرد هجوم لطفل كبير خشي أن يمس أحدهم لعبته الجديدة، إلا أن جسدها تجاوب معه بنفس المشاعر التي كان عليها حين كانت في سن التاسعة عشرة. وارتفعت ذراعاها تحيطان بعنقه، وتحركت نحوه وهي ترتجف حنيناً.

لكنها استجمعت شجاعتها لتقول: «دعني».

ـ هل هذا أحسن ما يمكنك القيام به؟

وابتسم ساخراً وهو يدفع رأسها إلى الخلف.

ـ حاولي مرة أخرى يا روزالين.

ـ لا أستطيع.

تمتمت بذلك وهي تحني رأسها وقد سقطت ذراعاها من حول عنقه مرتخية على جانبيها. الحقيقة التي كانت تخز عقلها الباطن طوال الأيام الثلاثة الماضية قد أسمعت صوتها أخيراً. أتراها تحبه؟ إنها لا تعلم. لكنه الرجل الوحيد الذي بإمكانه أن يثير مشاعرها بلمسة واحدة منه. سواء مرت عشر سنوات أم مئة، لن يغير ذلك من تأثيره عليها وعلى حواسها كافة. سيبقى الأمر كذلك إلى حين مماتها، وأفزعها إدراكها لذلك...

ابتعد خافيار عنها قائلاً: «أنت لا تستطيعين».

ورمقها بنظرة احتقار: «أنت حقاً عبدة لأحاسيسك. حسناً! أرى أن عليّ، حين تصبحين زوجتي، أن أضع عليك حارساً يراقبك طيلة الوقت».

تفجر غضبها خلال لحظة ضعفها هذه: «يمكنني رعاية نفسي، خافيار. لقد قمت بذلك مدة طويلة».

إنه يظنها امرأة مستهترة تنساق وراء رغباتها. لكن من أين حصل على هذه الفكرة عنها، فهذا ما لم تعرفه. ولن تهتم بتوضيح الأمر له. فلتدعه يظنها عاجزة أمام أي رجل. فذلك سيبقى أفضل بكثير من أن يعلم أن لمسته وحدها هي التي تشعل النار فيها: «إذن، أنا أقترح عليك أن تبقى مع

صديقتك وتدعني وشأني».

تأملها بعينين قاسيتين، فحولت نظراتها بعيداً، ثم قال ساخراً: «لا أظنني بحاجة إليها بعد الآن، فتجاوبك معي يخبرني بأنك ستكونين كافية تماماً لي... لفترة على الأقل».

أضاف الجملة الأخيرة بهدوء. فرفعت رأسها بحدة لهذه الغطرسة السافرة منه، فقد كان مع صديقته الليلة الماضية، وهذا جعل عينيها الخضراوين تلتهبان غضباً. ولكن مهما كان جوابها الذي أوشكت أن تقوله، فقد أوقفه قرع على باب المكتب وصوت جيمي يسأله: «هل يمكنني التكلم معك يا خالي؟».

سار خافيار إلى الباب يفتحه وهو يقول بحدة: «وأنا أريد أن أتكلم معك».

قال هذا فيما دخل جيمي المكتب. نظر جيمي إلى خاله ثم روز فاتسعت عيناه وهو يدرك أن هناك شيئاً بينهما. ذلك أن شعرها كان مشعثاً وخداها متوردان.

ـ حسناً، حسناً، إذن فقد وجدت روز!

قال جيمي هذا لخاله بابتسامة عريضة: «أم أنكما خططتما لقضاء الصباح وحدكما، كما فعلنا أنا وآن؟».

وأخذ يضحك.

مدّ خافيار يده إلى روز وأمسك بذراعها بحزم: «إذهبي إلى غرفتك واحزمي أمتعتك ودعي جيمي لي».

ولاحظت، وهو يدفعها إلى خارج المكتب، أن صوته الناعم كان يكظم غضباً جياشاً ينذر بالشؤم. وما كاد الباب ينغلق حتى سمعت صوته الغاضب يلسع جيمي. شعرت بالأسف لأجل الفتى، ولكن ليس بقدر ما شعرت به تجاه نفسها. فإدراكها بأنها وقعت في حب ذلك الطاغية حطم روحها، وأصاب ثقتها بنفسها كامرأة. هي، روز التي أمضت سنوات تطالب بحقوق المرأة، والتي، تملكها القنوط كطبيبة، من النساء الخانعات

اللاتي يقبلن بالعيش مع رجال يحكمونهن، تجد نفسها مستعبدة لأحاسيسها؟ لم يكن ذلك أمراً تجرؤ على التفكير فيه.

روز المغلوبة على أمرها تلك كانت آخر من دخل غرفة الطعام لتناول الغداء.

هبّ خافيار واقفاً على الفور وسحب لها كرسياً. وحاول الدون بابلو الوقوف لأن تهذيبه لم يكن يسمح له بغير ذلك، فقالت وهي تجلس: «لا حاجة بك لذلك أرجوك، فأنا وصلت متأخرة».

ـ في زمني، كان التهذيب مع السيدات ضرورياً بالنسبة إلى الرجل النبيل.

قال دون بابلو هذا ثم عاد يغوص في كرسيه ملقياً نظرة جانبة على جيمي الذي ظل جالساً: «لكن يبدو أن الشبان نسوا ذلك».

ـ ليس هذا كل ما نسوه.

قال خافيار هذا وهو يجلس بقرب روز وهو يلقي على جيمي نظرة مظلمة.

من الواضح أن الخطيبين الشابين ما زالا على اللائحة السوداء عنده بعد هربهما منها هذا الصباح.

فقال جيمي بوقاحة: «لا أدري ما الذي تلومني عليه، يا خالي خافيار. يبدو لي أننا أدينا لك خدمة، إذ أمكنك بذلك أن تمثل دور الفارس المغوار لامرأة جميلة».

ولسوء الحظ، أصرّ الدون بابلو على معرفة ما جرى. وتملك روز الذعر عندما أخذ جيمي يسرد بطريقة هزلية حماقة روز ذلك الصباح بكل تفاصيلها المثيرة البشعة.

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه دون بابلو المغضن، ثم قال شيئاً بالإسبانية جعل خافيار وجيمي ينظران إليها، ثم انفجر الإثنان ضاحكين.

شعرت روز بالاحمرار يكسو وجهها. لم يعجبها أن تكون موضعاً لهزء الرجال، خصوصاً وهي لا تفهم ما يقولون.

كان الغداء فظيعاً. فقد بدأ خافيار بلعب دور الرجل المتيم الذي سيتقدم لخطبتها بمهارة وحرارة أخرستها. فكانت عيناه الداكنتان الباردتان تصبحان فجأة دافئتين ناعستين في كل مرة ينظر فيها إليها، بينما تناوبت مشاعر روز بين احمرار الخجل والغضب.

* * *

ـ إنه منزل رائع الجمال.

قالت روز هذا لآن وهما جالستان خلف المبنى المستطيل المؤلف من طابق واحد، على مقعد مستدير يحيط بشجرة الجكرندة الإستوائية الضخمة القائمة وسط شرفة فسيحة. امتدت تحتهما شرفة أخرى حتى تصل إلى بحيرة صغيرة رائعة ترتطم بالشاطىء برفق. كانت الرحلة إلى المزرعة خالية من أي مشاكل. فقد استقلت روز حافلة فسيحة خاصة مع الدون بابلو وماكس وزوجته وآن. أما خافيار وجيمي فقد استقلا سيارة الفيراري.

وتمتمت آن: «نعم، إنه مريح، لكنه هادىء قليلاً بالنسبة إليّ. ويفترض جيمي أن ليس هناك متجر أو أي مكان للتسلية إلا على بعد أميال».

ـ يا لك من مسكينة!

قالت روز هذا ساخرة وقد بدأت تشعر بالإسترخاء لأول مرة خلال هذه الأيام الثلاثة.

كان جيمي وخافيار في الفناء الأمامي يلعبان كرة القدم مع بعض العمال، أما الدون بابلو فقد ذهب للنوم في وقت مبكر هذه الليلة لأن الرحلة أتعبته، وسيتناول عشاءه في غرفته. لهذا فإن العشاء سيقدم في وقت أندلسي هو العاشرة.

مالت آن إلى الأمام قليلاً وعلى وجهها الجميل حذر وشيء من الجد: «يا لي من مسكينة... لكنني لا أظن أن هناك ما علي أن أقلق لأجله ياروز. أما أنت فإنك في خطر من أذى وشيك يصيبك... أنا أعرف أنني طلبت منك أن تكوني لطيفة مع خافيار، ولكن، حسناً... لقد رأيت كيف كان ينظر إليك كما أن جيمي أخبرني أنه رآكما في المكتب فيما كان الباب مقفلاً، والله

يعلم ما الذي كنتما تفعلانه. أنا أعلم أنك أكبر مني سناً، وخبرتك بالناس تفوق خبرتي. لكنك لم تعبثي بالرجال من قبل. وكيف يمكنك، بعد سنوات أمضيتها في الخارج، سواء في الصحراء أم في أمكنة أخرى، أن تكوني ضعيفة إزاء رجل مثل خافيار».

ـ لا بأس، فأنا أعرف ماذا أفعل.

قالت روز هذا برقة وقد تأثرت للغاية باهتمام آن بها، وشكرت الله لأن الظلام يحيط بهما، ولا يمكن لآن أن ترى عينيها المغرورقتين بالدموع. وضعت ذراعها حول ابنة خالها تشدها إليها. آن تحبها، ولو كانت الأدوار معكوسة لفعلت لأجلها الأمر نفسه: «تعلمين أنني كبيرة ولست ساذجة كما قد تظنين».

فقالت آن ضاحكة: «الحمدلله على ذلك! كدنا، أنا وجيمي، نتشاجر من أجل هذا. فهو يقول إن بإمكانك أن تعتني بنفسك. لكنني قلت له إن أي رجل لديه صديقة يجب أن لا يعبث مع امرأة أخرى. أعني أن خافيار هو أرمل، فلماذا لا يحضر صديقته إلى منزله؟».

ضحكت روز فجأة بصوت خافت، شاعرة بأنها كبيرة في السن نوعاً ما. واحتضنت الفتاة مرة أخرى قبل أن تنظر إلى ساعتها ثم تنهض واقفة:

ـ هيا بنا، حان وقت العشاء.

بدا خافيار أثناء العشاء مضيفاً ممتازاً. وفي غياب الدون بابلو، بدا جو العشاء أقل تحفظاً، ولم يكن ثمة ما هو أفضل من ذلك بالنسبة إلى جيمي وآن المغرمين ببعضهما البعض.

لم تتناول روز سوى القليل من الطعام معللة ضعف شهيتها بسبب حرارة الجو. لكن الحقيقة أنه يتعلق بإرهاب خافيار لها. فقد كان التوتر يتملكها.

بدا خافيار شديد البراعة في ما يحاول التظاهر به. فقد كانت نظراته إليها حميمة دافئة طوال الوقت، وقد زاد ذلك من توترها وصعب عليها الاحتفاظ بجو من المودة والمتعة طيلة فترة العشاء. وعندما وصل العشاء إلى

مرحلة تناول القهوة، كان الإرهاق قد تملكها، وامتلأ قلبها ألماً تعذر عليها تفسيره.

كان جيمي أول من نهض عن المائدة وآن بجانبه: «المعذرة. نريد أن نخرج لنتمشى».

فقالت روز ضاحكة وقد تملكها ما يشبه الدوار: «آه، لا، لا يمكنكما ذلك، أنسيتما أنني المرافقة الحارسة؟».

ثم وقفت وهي تقول: «أنا قادمة معكما».

ـ غير ممكن.

قال خافيار هذا وهو يضحك بصوت خافت، ثم يقف واضعاً يده على ذراعها: «دعي عصافير الحب وشأنها يا روزالين. واسمحي لي بمرافقتك إلى غرفة نومك».

فألقت عليه نظرة جانبية: «الرجل الذي أحضرني معه إلى إسبانيا بصفة مرافقة حارسة يقول ذلك؟ يبدو أنك غيرت مفهومك».

ـ لا، إنني فقط أنحني لما لا مناص منه، كما ستفعلين أنت ذلك أيضاً.

قال ذلك وهو يديرها لتواجهه. قربه الشديد منها ولمسة يده على ذراعها جعلا قلبها يخفق بعنف. رفع ذقنها بإصبعه وقد ضاقت عيناه على وجهها الجميل، ولاحظت تحذيراً خفيفاً في أعماق عينيه.

وفجأة، تملكها الوهن، وبالكاد تمكنت من الابتسام وهي ترى جيمي يرافق آن إلى الخارج، وهو يقول ضاحكاً: «أنا واثق يا خالي أنك ستعتني بروز. إنها تبدو منهكة قليلاً».

لم تعترض عندما أحاط خافيار كتفيها بذراعه: «إلى السرير، روزالين».

بدت لمحة من الحذر على وجهها المعبّر قبل أن تفلح في تغطيتها.

استيقظت روز في الصباح التالي وهي تشعر بالصداع.

جاهدت للنزول من السرير ودخول الحمام. تركت المياه الباردة تنساب على جسمها إلى أن شعرت بالانتعاش. جففت شعرها بمجفف الشعر المعلق على الجدار ثم غادرت الحمام.

في غرفتها، ارتدت بنطلوناً أبيض وبلوزة زرقاء قصيرة الكمين، ثم فتحت باب الشرفة الفسيحة لتدخل منه أشعة الشمس إلى الغرفة. بهرها الضوء لحظة وما لبثت عيناها أن اعتادته فسحبت نفساً عميقاً لتملأ رئتيها من الهواء النقي.

تقع غرفتها في الناحية الخلفية من المنزل. تمتد أمامها الحدائق التي تصل إلى البحيرة. أخذت تنظر إلى سرب من الطيور خرج من الماء لتوه، ثم نظم نفسه على شكل دائرة، منطلقاً بعد ذلك إلى التلال البعيدة. تنهدت روز وتمنت لو أن بإمكانها الانضمام إلى تلك الطيور المحلقة في الفضاء. عادت إلى الداخل وجلست على حافة السرير.

حاولت أن تمشط شعرها المتشابك. عليها حقاً أن تقصه، كما أخذت تفكر للمرة المئة، قبل أن تسمع قرعاً على بابها. لا بد أنها آن وقد جاءت لتخبرها بمبلغ خداعها لنفسها: «أدخلي ولا تقولي شيئاً أعرفه...».

والتفتت ببطء، وإذا بها تفتح فمها ذاهلة. لم يكن القادم آن بل خافيار.

سار نحوها حاملاً صينية من الفضة فوقها إبريق من القهوة وآخر من الحليب وإناء للسكر وكوبان. لكن هيئته لم تبدُ كهيئة أحد المستخدمين، بل على العكس، فقد بدا وكأنه سيد العالم. شعره الأسود بدا متألقاً تحت أشعة الشمس الذهبية، أما تقاسيم وجهه البرونزية فقد برزت بقوة.

استقرت عيناها على كتفيه العريضتين وصدره الفسيح الذي يبرز تحت قميصه الأسود المقفل، وراح نبضها يخفق بجنون في كل أنحاء جسمها. حوّلت نظراتها بعيداً وبللت شفتيها اللتين جفتا فجأة، بلسانها: «ماذا تريد؟».

لم يكن هذا سؤالاً لائقاً. وضع الصينية على منضدة السرير الجانبية ثم وقف ينظر إليها. بدت ملامحه بصلابة الحجر وظهرت على شفتيه ابتسامة عنيفة. كان يبدو رائع الرجولة، وأشعرتها رجولته هذه بتيار كهربائي سمّرها دون حراك. ولم تستطع روز أن تمنع نفساً سريعاً ورجفة لا إرادية في يدها، ما جعل الفرشاة تسقط من يدها. وعندما انحنت لتلتقطها سبقها

خافيار إليها: «آه، أظنك تعلمين».

قال ذلك وقد اتسعت ابتسامته. مال إلى الأمام ومرّ بيده على ذقنها.

أحرقتها لمسته كالنار. نظرت إلى عينيه بثبات: «هل لك أن تعطيني الفرشاة، من فضلك؟».

- بهذه البرودة؟

رفع حاجبيه ثم انتصب واقفاً وهو يتأمل وجهها المتكبر: «ربما هذا يكفي الآن. اسكبي القهوة وأنا سأمشط شعرك».

أرادت أن تعترض لكنه جلس بجانبها وراح يمشط شعرها المتشابك:

- شعرك رائع، إنه بلون الخمرة وفيه خصلات ذهبية اللون.

- بتأثير الشمس الحادة، يصبح جافاً وتضيع ألوانه.

وأدركت أنها تثرثر. كان خافيار يضع يده على كتفها كأنه يثبتها، بينما راح يمشطها بيده الأخرى. تمنت لو أن بإمكانها أن تميل إلى الخلف لتستلقي على صدره الواسع القوي، ومضت لحظة كادت تفعل فيها ذلك.

- هذا يكفي.

قالت هذا بصوت خافت وهي ترفع رأسها إلى الأمام، ثم أجفلت عندما جذبت هذه الحركة شعرها.

ضحك وأدار وجهها إليه: «كلمة «يكفي» لا وجود لها في قاموس علاقتنا، يا روزالين».

ثم انحنى وعانقها.

غمرتها أمواج من الأحاسيس حطمت تحكمها في نفسها، فأخذت تتململ.

رفع خافيار رأسه مبتسماً، وشعلة من الرضى تلمع في عينيه. ثم عاد يعانقها.

بدا أن مشاعرها قد هزمت عقلها منذ وقت طويل فمدت ذراعيها تطوق بهما عنقه. وغرقت في حلاوة عناقه للحظات طويلة. فجأة، تراجع إلى الخلف ثم وقف: «لا».

لا . . . وماذا يعني بـ«لا»؟ جلست على السرير تنظر إليه.

ـ اجلسي وسأسكب القهوة.

جاهدت للجلوس وقد التهب وجهها. كان عليها أن توقفه عند حده منذ أول لمسة منه. شعرت بالإذلال لإدراكها أن ليس لديها دفاعات ضد هذا الرجل، بينما هو محنك للغاية وذو خبرة واسعة في العلاقات مع النساء. وجعلها تصميم عنيد تقف على قدميها، وهي تبدو شاحبة بشكل غير عادي: «لا تزعج نفسك، لا بد أنها بردت الآن».

قالت هذا وهي تتوجه إلى الباب برشاقة، محاولة أن تجاريه في كلامه المهذب: «سأعد لك كوباً طازجاً».

ـ فكرة جيدة.

قال هذا بنعومة ثم سبقها إلى الباب يفتحه لها وهو ينحني باحترام.

تجاوزته خارجة، متجنبة النظر إلى عينيه الداكنتين الساخرتين، وفجأة وإذا به يمسك بخصرها يوقفها عن السير.

ـ دعني . . .

فقاطعها: «انتظري يا روزالين، شعرك . .».

ومدّ يده يزيح خصلة شعر عن وجهها: «هذا يفضح الأمر نوعاً ما . . . أقترح أن تسوّيه بشكل ما قبل أن تقابلي بقية من في البيت».

لكن تحذيره جاء بعد فوات الأوان، ووقعت الكارثة . . .

* * *

٨ ـ وهل أملك الخيار؟

وقفا عند مدخل غرفة النوم، وكان الدون بابلو على بعد أقل من مترين، جالساً على كرسيه ذي العجلات وماكس خلفه يدفعها به في الممر. ألقى نظرة ملؤها التعجب على روز وشعرها المشوش الأشعث المنسدل على كتفيها، ثم على ابنه الذي كان يمسك بمعصمها بيد، بينما يده الأخرى تعبث بشعرها. وصاح بصوت كخوار الثور لا يناسب رجلاً مريضاً يصارع الموت: «خافيار! كيف تجرؤ على إغواء فتاة . . . فتاة ضعيفة في بيتنا؟».

وأكمل حديثه بلغته، ووجهه يتوهج غضباً، فأمطره بوابل من الشتائم بدت شائنة حتى بالنسبة إلى روز التي تجهل الإسبانية.

ارتدت روز إلى شخصيتها المهنية، وأدركت ما يمكن أن يفعله الانفعال البالغ بصحته، فتدخلت تقول: «أرجوك، دون بابلو . . . لا ترهق نفسك بالانفعال. الأمر لا . . .».

وإذا بأصابع خافيار تنغرز في لحم معصمها فكبحت صرخة ألم: «دعني الأمر لي».

قاطعها بذلك بحزم. ماذا يريدها أن تترك له؟ وألقت عليه نظرة مرّة. ألا يستطيع هذا العديم الإحساس أن يرى كم كدّر أباه؟ لكنه تجنب عينيها وتابع قائلاً: «ما كانت روز ستقوله، يا أبي، هو أن الأمر ليس بهذا السوء، لأنها منحتني شرف موافقتها على الزواج بي».

نظرت روز إليه بذعر، وفتحت فمها لتنكر ذلك، ولكن ازدياد ضغط اليد على معصمها والعناد في ملامحه أوقفا الكلمات في حلقها.

أخذ الدون بابلو ينقل نظراته المجفلة بينها وبين ابنه، لتستقر أخيراً على وجه روز الذي كان يتوهج احمراراً: «يا عزيزتي... يا فتاتي العزيزة، أنا مسرور للغاية».

قال هذا بشعور صادق وقد أضاءت وجهه المغضن ابتسامة دهشة. ولاحظت روز أن عينيه مغرورقتان بدموع الفرح: «لم أظن قط أنني سأعيش لأرى هذا اليوم».

ومدّ إليها يداً معروقة: «تعالي لأعانقك».

ألقت نظرة قاسية على خافيار، فالتوت شفتاه بابتسامة، كأنه يتحداها أن تجرؤ على رفض طلب الرجل العجوز. وعضت روز شفتها. أي خيار لديها؟ الآن أو الأسبوع القادم، ليس هناك فرق كبير. عادت بانتباهها إلى الرجل العجوز، وانحنت لتمسك بيده التي كان يقدمها إليها، فضمها بيده الأخرى الواهنة إليه، فألقت روز خدها على خده المتغضن، مستسلمة إلى ما لا مناص منه...

وبعد أن اندفع ماكس بالأب بسرعة بالغة إلى هاتف لينشر النبأ، قال لها خافيار ساخراً: «والآن، هل وجدت الأمر مؤلماً جداً؟».

ـ قد لا يكون كذلك إذا أنت تركت معصمي.

لقد وقع الأمر ولم يعد هناك داعٍ للجدل، لكن يده العريضة التي كانت تدعك جلدها بكسل كانت تمثل عرضاً مختلفاً للزواج. فابتعدت عنه وهي تجاهد للسيطرة على حواسها الغادرة: «ما زلت بحاجة إلى فنجان قهوة».

ـ وبحاجة أيضاً إلى خاتم.

ـ أنا لست بحاجة إلى خاتم.

بعد ذلك بخمس دقائق، كانت لا تزال تجادل في هذه النقطة، وهي تقف وسط غرفة مكتبه، وفي يدها فنجان قهوة يتصاعد منه البخار. نظرت إليه روز وهو يخرج شيئاً من خزنة في الجدار، فاختلست النظر إلى جسمه القوي وتأوهت.

التفت خافيار بدون إنذار فرآها تحدّق فيه، وبخطوة واحدة كان يقف

إلى جانبها. قال وعيناه تلمعان هزلاً: «الخاتم والعرس ضروريان لإتمام الزواج».

في محاولة للسيطرة على أفكارها المشاكسة، رشفت محتويات فنجانها ببطء ثم وضعته بهدوء على المنضدة: «إسمع، خافيار. دعنا نوضح هذا الموضوع. إنها مجرد ترتيبات زواج لا أكثر. أنا... أنا...».

وتلعثمت وكادت تفقد أعصابها: «أنا لا أريد أن تتجاوز العلاقة بيننا ترتيبات الزواج».

ـ لن أجادلك في ذلك.

كانت عيناه غامضتين، فيهما وميض لم تستطع تحديد ماهيته.

ـ هذا خاتم أمي وأنا أريدك أن تلبسيه.

نظرت روز إلى علبة الخاتم المفتوحة في يده، وطالت نظرتها الزمردة المربعة المحاطة بعدد من الماسات، والمستكينة في مخمل ياقوتي اللون. رفعت ذقنها قليلاً ونظرت إليه بجرأة. بدا رائعاً لكنها لن تخبره بذلك، وسألته بخشونة: «هل أعجب هذا الخاتم زوجتك؟».

فقال بنعومة: «زوجتي الراحلة اختارت خاتمها بنفسها، أما أنت فليس لديك خيار».

وأمسك بيدها ووضع الخاتم في إصبعها اليسرى: «مناسب تماماً. سيسرّ أبي به».

راح الغضب يغلي في داخلها. إنه على صواب مرة أخرى، تباً له! فهي لا تملك الخيار.

نظرت إلى الجوهرة في إصبعها، وأدركت أنها غير مستعدة لمناقشة الموضوع: «لابأس. سألبسه لأجل أبيك، وهذا سيقوّي صحة ادّعائنا كما أظن».

قبلت ذلك كارهة، فقال ضاحكاً بسخرية: «أنت سهلة القياد روزالين، وأتساءل إلى متى ستبقين كذلك».

وقبل أن تتكهن بنيته، أحاطها بذراعيه وعانقها وثار غضبها حتى لم يعد

بإمكانها التنفس حين أطلقها: «لماذا فعلت ذلك وليس هناك أحد ليرانا؟».

ـ أرجو المعذرة لقيامي ببعض التدريبات هنا، فأنت تصبحين جميلة جداً عندما تغضبين.

جاءت ابتسامته العريضة تأنيباً سافراً لملامحها المتمردة.

ـ لن نصل إلى مرحلة الزفاف أبداً.

قذفته بذلك دون احتراس، وعيناها الغاضبتان تحومان فوق هذا الرجل القوي الرائع المتسلط، والذي لا تستطيع منع نفسها من تحديه. ثم تابعت تقول: «وحتماً سوف يدرك هذا شخص ما».

ـ آه، أتظنين أن الأسرة سترانا متخشبين؟

ابتسمت في داخلها. إنها المرة الأولى التي تراه فيها مرتبكاً وهو يسيء فهم تعبيرها بلغتها الإنكليزية. وابتسمت في داخلها: «نعم».

شيء في لكنته الأجنبية الخفيفة وهو يتحدث جعل شفتيها تلتويان. حاولت أن تخنق ضحكتها التي أخذت تغلي في صدرها فلم تستطع، وهكذا انفجرت ضاحكة.

ـ أنا مسرور لأنني أسليك. رنين ضحكتك هو تغير بهيج في وجهك العابس الذي تواجهينني به على الدوام.

وأشرق وجهه بابتسامة تغضنت معها زوايا عينيه فبدا أصغر من سنه بعشر سنوات.

* * *

بعد مضي أسبوعين، وقفت روز أمام المرآة الطويلة في الحمام. قررت أنها فعلاً تبدو عروساً بشعرها الأحمر الممشط إلى الخلف بشكل كومة من الخصلات يحيط بها إكليل من الزهور. أما ثوبها، وهو من الساتان العاجي، فبدا ملائماً تماماً لطول قوامها، مبرزاً خصرها النحيف، ملتفاً حول وركيها بأناقة. بدا ثوباً تقليدياً ببساطته، فالتنورة تنسدل بنعومة فوق الفخذين وساقيها لتنتهي عند القدمين. أما الحذاء فهو عبارة عن خفين من الساتان أيضاً. لم تشعر روز بأيٍّ من المشاعر التي تنتاب العروس عادةً في يوم زفافها،

وإنما الاستسلام الحذر هو ما رأته في العينين الخضراوين اللتين كانتا تبادلانها النظر في المرآة.

قالت آن: «تبدين رائعة الجمال. لم أعد أستطيع الصبر على موعد عرسي أنا».

نظرت روز إلى آن التي بدت جميلة بثوبها المشابه لثوب العروس ولكن بلون فستقي، وقالت لها برقة: «وكذلك أنت».

طرق الخال أليكس الباب الموارب بخشونة: «هيا، حان وقت الذهاب».

دسّت آن باقة أزهار رائعة في يد العروس: «سأراك في الكنيسة».

بينما أمسك أليكس بذراع روز وقادها إلى حيث سيارة العرس:

ـ تبدين رائعة الجمال، يا عزيزتي. سيكون والداك بالغي الزهو بك اليوم.

شعرت روز برغبة في البكاء عندما ساعدها خالها في الصعود إلى السيارة وجلس بجانبها. منذ ذلك اليوم المهلك الذي أخبر خافيار فيه أباه بأنهما سيتزوجان، لم تكن روز ترى عريسها المفترض إلا نادراً.

مساء ذلك اليوم نفسه وفد إلى المنزل العديد من المهنئين وتقبلت التهاني من الجميع. وفي اليوم التالي، عندما كانت روز وآن ترتاحان بجانب بركة السباحة، سألتها آن عن سبب السرعة في هذه الخطبة. نجحت في إقناع ابنة خالها بأنها وقعت في الغرام، ثم ما لبث جيمي وخافيار أن وصلا إلى البحيرة، فتركت آن الموضوع.

في الواقع، لم تر روز خافيار بمفرده منذ ذلك اليوم. وإذا كانت قد تمنت في سرها أن يكون زواجهما حقيقياً، فقد تلاشى أملها بذلك تماماً. كان خافيار يحضر لتناول الفطور ليختفي بعد ذلك فجأة، ثم يظهر من جديد عند العشاء ليتصرف كمضيف لبق وخطيب مشتاق فيخدع الجميع. التعزية الوحيدة التي وجدتها في ورطتها هذه كانت في الدون بابلو، فقد كانت سعادته توحي بالسرور لمن يراها؛ لقد منحت العجوز فرصة جديدة للحياة.

ولم يكن قلب روز الرقيق يسمح لها بأن تبدد وهمه. وبدلاً من ذلك استغرقت في عمل بالغ الأهمية، فقد ذهبت خلال العطلة الأسبوعية التي تلت هي والدون خافيار، إلى إنكلترا، بالطائرة الخاصة طبعاً، لتعود مع والدي آن وجيمي. وقد استلمت تيريزا مسؤولية تنظيم العرس. كما قامت برحلات إلى سيفيل للتسوّق وزيارة صالونات التجميل. حتى لو أرادت روز أن تتحدث مع خافيار بمفرده، ما كانت لتجد فرصة لذلك.

لم تكن بحاجة إلى الكثير من الذكاء لتعلم أنه كان يتجنبها. ما إن أذيع نبأ الخطبة حتى بدا خافيار متباعداً ولم تعد تحصل منه على عناق، ما عدا بعض العناقات الباردة في المناسبات وأمام أفراد الأسرة. وكان الاستنتاج واضحاً؛ فهي ستكون بالضبط في الموقع الذي وضعها فيه منذ البداية، زوجة مقبولة إجتماعياً لترضي أباه. أما رغباته الجسدية فقد استقر أمرها عند صديقته. وحدثت روز نفسها بأن هذا الأمر لا يهمها، وأوشكت أن تصدق ذلك...

أيقظها من تأملاتها ضغط خالها على يدها. لقد وصلا! كانت الكنيسة قائمة في الناحية الأخرى من البحيرة في قرية ڤالدزبينو الصغيرة للغاية.

كان الطريق إليها قصيراً جداً بالنسبة إلى روز... راح قلبها يخفق عالياً، ولو لم تكن متشبثة بذراع خالها، لما استطاعت، أن تصعد الدرجات المؤدية إلى باب الكنيسة.

استغرقت عيناها لحظة لتتعودا على جوّ الكنيسة المعتم. وعندما حدث هذا حبست أنفاسها. كان خافيار واقفاً عند أسفل مذبح الكنيسة، مراقباً كل خطوة تخطوها. بدا طويلاً عريض الكتفين ووسيماً إلى حد لا يصدّق في بذلته الرمادية الأنيقة. اشتبكت نظراتها المتوترة مع العينين السوداوين اللتين اشتعلتا فجأة بنار الإبتهاج بالنصر فكادت نارهما تبتلعها. وكادت روز تستدير لتهرب...

تقدم خافيار إلى الأمام وأمسك بيدها. شعرت برجفة في جسمها لم تستطع تفسيرها، فجمدت مكانها. ضاقت عيناه وكأن ترددها أغضبه، ثم

جذبها لتقترب نحوه. ثم حياها الكاهن وابتدأت مراسم الزواج.

فيما بعد، لم تتذكر روز من الاحتفال سوى القليل، ما عدا الوجود المدمّر لذلك الرجل الطويل العريض الكتفين بجانبها. شعرت بخاتم الزواج وكأنه ختم بارد قاس بالتملك في إصبعها، ولدهشتها أعطيت خاتماً لتضعه في إصبع خافيار. وعندما تلا الكاهن الكلمات: «يمكنك أن تعانق عروسك».

لم تكد تفلح في إخماد رجفة حتى اغتنم هو الفرصة وأخذها بين ذراعيه وأحنى رأسه المزهو وعانقها.

غاضبة متوهجة الوجه، رفعت روز بصرها إلى وجهه الأسمر بعد أن تركها أخيراً، فتصارعت أعينهما للحظة. لم تكن تريد عناقاً مقنعاً إلى هذا الحد، بل لمسة مختصرة تتماشى مع التقاليد، لا غير!

وابتسم خافيار بينما شعرت هي بارتجافة عندما تأبط ذراعها بشكل متملك، وقادها عائداً بها إلى ممرّ الكنيسة.

أخذت لهما الصور الفوتوغرافية، وتنفست روز الصعداء عندما غاصت شاكرة في المقعد الخلفي من سيارة العرس. كانت هذه هدنة قصيرة قبل أن تضطر إلى مواجهة المدعوين مرة أخرى في حفلة الاستقبال في المنزل.

ـ سارت الأمور بأحسن حال كما أظن.

قال خافيار هذا وهو يجلس بجانبها، وجسمه القوي قريب منها إلى حد لا يبعث الراحة في مشاعرها.

ـ وأنت تبدين رائعة الجمال يا زوجتي العزيزة.

والتفت إليها لينظر إلى جسمها الرشيق بعجرفة مثيرة للاشمئزاز بقدر ما هي وقحة. وقال ساخراً: «وعذراء طاهرة تماماً».

فقالت بحدة: «الثوب كان فكرة أختك».

لا بد أنها مجنونة لموافقتها على الزواج من هذا الرجل وتملكتها المرارة وهي تقابل عينيه السوداوين الباردتين. لم يكن في نظراته أي أثر للحنان. هناك فقط السخرية الباردة لرجل يفحص شيئاً اقتناه حديثاً مقيّماً إن كان

يستحق ثمنه.

وعادت تقول: «أنا شخصياً كنت أفضل ثوباً أسود».

رأت الغضب يتصاعد في عينيه، لكنها لم تهتم. فقد شعرت بأنها مجروحة بشكل غريب وهي تراه يسخر من الزواج بعد دقائق من خروجهما من الكنيسة. لكنها عادت فذكرت نفسها بأنه لم يكن زواجاً حقيقياً.

أقيمت وليمة العرس وألقيت الخطب التقليدية وتعالت أصوات الموسيقى والضحكات. كما قدم العصير الفاخر بسخاء، وانتشر الضيوف في الغرف والحدائق. ابتسمت روز للجميع حتى آلمها خداها. وأخيراً شعرت بخدر لم تعد تشعر بعده بشيء.

وكانت ذراع خافيار تلتف بحزم حول خصرها طوال الوقت. أحنى رأسه وهمس لها: «حان وقت رحيلنا إلى شهر عسلنا، روزالين. هل تريدينني أن أساعدك في تغيير ملابسك؟».

ـ أنت تمزح!

ورأت آن قريبة منهما فتابعت تقول: «وصيفة العروس هنا لهذا الغرض».

ثم أمسكت بالفتاة.

عندما كانت روز تغير ملابسها راحت آن تحدثها وهي مليئة بالحماسة عن سخاء خافيار مع جيمي ومعها، ما أثبت لروز أن خافيار قد وفى بتعهده في الصفقة: «عريسك رائع. أنا وجيمي مسروران للغاية للنفقة الجديدة التي خصصها لنا».

ـ لكنك أخبرتني بذلك أمس.

أرادت أن تسكتها. لم تكن تريد أن تسمع مرة أخرى أن خافيار رجل رائع، لكن آن تابعت الكلام بكل تفاصيله الدقيقة.

سوّت حمالات ثوبها الغالي الثمن، ثم تناولت سترته الملائمة وحقيبة يدها. وكانت قد أزالت الأزهار من شعرها وجعلته على شكل ضفيرة فرنسية. ولم تلبث أن استعادت شيئاً من ضبط النفس. لكنها كانت مرتاحة

تقريباً للرحيل، فقد كان مزاج آن الطيب الفكه فوق احتمالها.

كان خافيار ينتظرها في الردهة، فانتصب واقفاً لدى اقترابها، والتوى فمه بابتسامة استحسان بالغ.

وحدّثت روز نفسها بأن ذلك مجرد تمثيل لأجل الضيوف، لكن ذلك لم يمنع تسارع النبض في عنقها. وعندما أصبحت بجانبه كانت أعصابها قد بلغت أقصى درجات التوتر.

ـ هذا حسن جداً.

قال ذلك وهو يحيط كتفيها بذراعه ويقودها بين حشود المدعوين إلى حيث كان والده يجلس بين أفراد أسرته. قبّل الدون بابلو وتيريزا روز، وكذلك جين وأليكس وآن وجيمي. لكن آن تشبثت بها للحظات. يجب أن لا تعلم هذه الشابة الصغيرة أبداً أن كل هذا هو لمصلحتها.

حملتها السيارة الفيراري الحمراء من طريق المنزل الفرعي إلى الطريق العام. وضع خافيار قدمه على دوّاسة البنزين فاندفعت بهما السيارة ما جعل روز تسقط على مقعدها. فسألته: «لِمَ هذه العجلة؟».

ـ همم...؟

وشخر قائلاً بعد أن ألقى عليها نظرة قصيرة، عاد بعدها لينظر إلى الطريق: «أنا محبط».

نظرت إليه بحفلة. إذا كان يظن أنه سيرضي رغباته الجسدية معها، عليه أن يفكر مرة أخرى: «والآن، انتظر لحظة...».

فقال ساخراً: «سائق سباق محبط».

أغمضت عينيها بارتباك، وتصنعت النوم، وإذا بآثار الليالي المؤرقة تدركها فتغرق في النوم.

ـ روزالين.

داعب الصوت العاطفي الأجش أحلامها.

ـ نعم.

وتنهدت وهي تفتح عينيها. وتشابكت العينان الخضراوان الناعستان

بالعينين الداكنتين. ولم تستطع أن تمنع شهقة صدرت عنها. كان خافيار منحنياً فوقها، وملامحه صلبة كالحجر، وفي عينيه لمعان بدائي متوحش. انسدلت أهدابه لتخفي أي لمحة من مشاعره وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مخيفة: «لقد وصلنا».

قال هذا وذراعه تمتد حولها، وأصابعه تفتح قفل حزام مقعدها.

شعرت روز بإحساس عنيف جعلها ترفع يدها بحركة لا إرادية نحو وجهه، لكنها ما لبثت أن أدركت في الوقت المناسب ما كانت تفعله، فاستعادت سيطرتها على أحاسيسها الغادرة.

أكملت حركة يدها بتوجيهها إلى شعرها متظاهرة بأنها حركة عفوية:

ـ هذا ما أراه.

برز إلى جانب السيارة رجل لم تره من قبل وفتح لها الباب. وعندما نزلت وقف خافيار بجانبها وقام بمهمة التعارف: «روزالين، هذا فرانكو. إنه، ماذا نسميه؟ رئيس خدمي».

فقالت بفضول: «ومن هو ماكس إذن؟».

ـ ماكس ومارتا هما مرافقا أبي الدائمان. يذهبان حيث يذهب. فرانكو هو المسؤول عن هذا البيت وكان في إجازة عندما أتيت أنت إلى هنا من قبل.

اجتازت الردهة الفسيحة الأنيقة وخافيار يتقدمها بخطوة فيما سار فرانكو خلفها حاملاً حقيبة ملابسها، وإذا بها تشعر بدافع ملح إلى الضحك بشكل عصبي لم تستطع مقاومته.

فقد كانوا يسيرون في صف واحد على الأرض المرصوفة بالموزاييك ما جعلها تتذكر فيلماً هزلياً كانت قد شاهدته من قبل. عضت باطن شفتها بشدة لتمنع نفسها من الانفجار بالضحك. أن يكون عريسان في ليلة زفافهما بهذا التحفظ هو أمر سخيف للغاية!

ـ هل هناك ما يسليك؟

وقف خافيار وأمسك بذراعها وأرغمها على مواجهته. أحرقتها لمسته كالنار فنظرت إلى أصابعه الطويلة على جلدها، وإذا بكل ما تشعر به من

تسلية يتلاشى.

رفعت إليه عينيها ورأت التحدي الخطر في ابتسامته: «لا، لا شيء على الإطلاق».

وأين التسلية في زواج من دون حب؟

كان العشاء راقياً متحضراً. وأكلت روز عدة لقيمات من اللحم البارد، ومع أنها لم تشعر بنكهته مطلقاً، فقد أرغمت حلقها الجاف على ابتلاعه، كانت تشعر بتوترها يتصاعد طوال الوقت.

تبادلا كلمات لا معنى لها مثل: سار العرس على ما يرام... بدت تيريزا بصحة جيدة... كان الجو متألقاً... وحاولت روز أن تبقي الحديث مهذباً، لكن أجوبة خافيار غدت مختصرة أكثر فأكثر مع مرور الوقت وجلس صامتاً بكآبة ما بعث الاكتئاب التام في نفسها. وأخيراً، دفعت كرسيها إلى الخلف ووقفت.

ـ أذاهبة إلى مكان ما؟

ضاقت عيناه وأخذ يحدّق إليها لحظة طويلة وقد بدا فكه متوتراً.

تصلّب جسمها: «لقد نلت ما فيه الكفاية».

ولم تكن تتحدث فقط عن الطعام. فمن الواضح أن العرس قد انتهى، والمهمة قد أنجزت بالنسبة إلى خافيار، فماذا يمكن أن يقال بعد؟

ـ فكرت في أن أفرغ حقيبتي، فقد كان يوماً مجهداً وأنا متعبة نوعاً ما.

فقال بنعومة: «كما تشائين. أظن أن فرانكو أعطاك الغرفة التي كانت لك في المرة الماضية».

هكذا إذن...؟ ما كان أمرهما ليصبح أكثر وضوحاً لو أنه كتب ذلك في عقد الزواج.

ـ تصبح على خير.

قالت روز هذا بفتور وخرجت من الغرفة، ولم يحاول خافيار منعها.

بعد حوالى نصف ساعة، كانت قد اغتسلت ولبست قميص النوم الوحيد الذي وجدته، وهو من الساتان والدانتيل، وكانت آن قد اختارته لها

كهدية ليلة الزفاف. ثم صعدت إلى السرير ذي المظلة. استلقت على ظهرها وأخذت تنظر إلى أشعة القمر الفضية. كان الجو شديد الحرارة، لكنها جذبت الملاءة، كالعادة، حتى عنقها ثم أغمضت عينيها، وسرعان ما راحت في غيبوبة هي بين النوم واليقظة. لمسة خفيفة ناعمة من يد قوية على خدها، جعلتها تتنهد مبتهجة وتتقلب في هذا الدفء.

وبوهن بالغ، فتحت عينيها لكنها لم تر شيئاً، فقد كان الظلام حالكاً. لا شك أنها تحلم! رفعت ذراعيها وأمسكت بطيف عاشقها، فأحاطت يداها بظهر رجل صلب... وللحظة تجمدت يداها...

بعد أن اعتادت عيناها الظلام، أدركت أن الأمر حقيقي: «خافيار».

كان يرتدي بيجاما من الحرير الناعم: «ومن غيري، يا جميلتي روزالين».

حاولت الذراعان اللتان امتدتا نحوه، غريزياً، أن تدفعاه عنها. فاشتبكت إحدى يديها بسترة بيجامته بينما انبسطت الأخرى على صدره. أمسك بيديها بسهولة وهو يقربها منه: «نعم يا زوجتي».

ـ ما الذي تظن أنك تقوم به؟

سألته بصوت بعوزه الاقتناع حتى في أذنيها. لكن مع شعورها برائحته، غرقت مرة أخرى في سحر رجولته. وكان الجواب ضحكة خافتة وعناق حميم ألهب مشاعرها.

حاولت روز.. حاولت أن تقاوم... أغمضت عينيها كأنها لا تريد أن تشعر بشيء. ولكن ذلك لم يساعدها سوى في إثارة حواسها الأخرى. شعرت بخفقان قلبه القوي في صدره، وأثارت لمساته فيها مشاعر لم تقو على إنكارها. فاسترخت بين ذراعيه مستسلمة لأحاسيسها.

قال بصوت خشن وعيناه السوداوان تلمعان في عينيها: «هذا ما كان يجب أن يحصل منذ عشر سنوات».

أخذ قلبها ينبض في أذنيها، وما هي إلا لحظات حتى غرق كلاهما في بحر من الأحاسيس المحمومة جعلتهما غافلين عن كل ما حولهما.

مضى بعض الوقت قبل أن تعي روز ما حولها... خفقات قلبه المنتظمة على صدرها وصرير أنفاسه، كانا الصوت الوحيد في تلك الغرفة المظلمة. ماذا فعلت؟ تهاوت بين يديه لدى أول لمسة كالمراهقات؟ أخذت تعنف نفسها.

ـ يا حلوتي، روزالين. إنك رائعة حقاً!

قال خافيار هذا هازلاً بصوت أجش. وهو يحك أنفه بعنقها، ثم يتركها.

وضعت يديها على كتفيه تريد أن تدفعه عنها بعيداً وهي تشعر في أعماقها بالحزي من استسلامها العاجز هذا له. وبدا ذلك، بشكل ما، أسوأ عندما أدركت أنه ما زال يرتدي سترة البيجاما!

* * *

٩ ـ حب . . وخط أحمر

تركت روز ذراعيها تسقطان إلى جانبيها. ومع أنها حررت يديها، إلا أنها تعلم الآن أن جسدها لن يتحرر أبداً من عبوديته لخافيار. رفضت أن تدعو هذا حباً. بقيت مستلقية مدة طويلة تحدق في الظلام وهي تشعر بالخزي للسهولة التي استسلمت بها إليه.

ـ تبدين هادئة تماماً، روزالين؟

اخترق الصمت بينهما صوت خافيار الأجش. كان يستلقي على جنبه، وجسده الذي أخفى الظلام معالمه يميل نحوها وقد ظهر الرضى في عينيه، وهو يمرر إصبعه على شفتها السفلى: «أنت تثيرين دهشتي، فقد بدوت متشوقة للغاية، يبدو أنك لم تحصلي على علاقة جسدية منذ وقت طويل».

هبطت روز من ذروة الأحاسيس التي تدير الرأس، إلى الحقيقة القاسية. فأخفت مشاعرها المزقة وراء حنكة هادئة: «وماذا هناك لأقوله؟ أنت عاشق عظيم. ولكن لا بد أن مئات من النساء أخبرنك بذلك، وعلى كل حال فقد حصلت على كثير من التدريب ومن المؤسف أن ليس لديك نفس الحرارة في المحافظة على الوعد».

قالت هذا متهكمة، فقال خافيار ببرودة: «أنت تدخلين أرضاً خطرة. فأنا لم أنسَ إساءتك ولم أصفح عن هروبك بعد أن تعاهدنا على البقاء معاً».

محاولتها للتمسك بالحنكة تلاشت عندما ذكرها بما أثار آلامها: «أنا أيضاً لم أنسَ أو أصفح. كما لم أنسَ ابتزازك لي هذه المرة للقبول بهذا الزواج بعد أن وعدتني أنه لن يكون بيننا أي علاقة».

قالت له هذا بصوت كالفحيح، وقد غص حلقها بمرارة، بسبب كل ما عانته على يده من قهر وإذلال: «أنت حقير كذاب وأنا أكرهك».

ـ أنا لم أعدك قط بزواج من دون علاقة جسدية بيننا. أنت سمعت فقط ما تريدين أن تسمعيه. أما بالنسبة إلى الكراهية، فأنا أعتبرها أشبه بالاعتراف الزائف بالحب. إذا كانت كراهيتك لي تجعلك تذوبين بين ذراعي فمن هو الكذاب بيننا إذاً؟

التمع شيء في عينيه جعلها ترتجف ودفعته على صدره بشدة، لكنه لم يفعل سوى أن أطلق ضحكة قاسية خشنة، ثم ضمها إليه من جديد.

ـ لا، لا . . .

وأمسكت بشعره الذي اشتبك بأصابعها وحاولت أن تدفعه عنها.

ـ هل هي الكراهية التي تجعلك ترتمين بين ذراعيّ لدى أول لمسة؟

قال هذا ساخراً فيما هو يمرر يده بنعومة على كتفها. ثم رفع رأسه واخترقت عيناه المتألقتان عينيها بمشاعر محرقة.

بالرغم من جهودها لرفضه، لم تستطع أن تمنع رجفة البهجة التي فضحتها. وعاد يعانقها ليغرقا من جديد في بحر من المشاعر المحمومة.

استيقظت عند الصباح مشتتة الذهن تماماً. كانت الغرفة لا تزال مظلمة، وذراعه الثقيلة مرمية على جسمها.

عادت الذكريات إليها ومعها شعور بالخزي لإدراكها سهولة وقوعها بين ذراعي خافيار.

تمطّت، ثم حاولت أن تخرج من تحت ذراعيه اللتين كان يقيدها بهما.

تمتم خافيار بكلام غير مفهوم لكنه لم يستيقظ. تململ بعدم ارتياح ثم انقلب على ظهره، فتحررت منه ونزلت من السرير. وإذا بها تجمد مكانها لسماعها قرعاً على الباب وصوتاً ينادي خافيار، ثم انفتح الباب مدخلاً دفقة من الضوء معه. وسرعان ما ملأ الضوء الغرفة حين دخل فرانكو باسماً وهو يحمل صينية القهوة.

عادت روز إلى الاستلقاء في السرير وسحبت الملاءة تغطي بها جسمها.

فتح خافيار عينيه وجلس في السرير: «أي جهنم؟».

رفعت روز بصرها لترى ظهره العريض فشهقت: «آه يا إلهي!».

كانت الندبة تمتد من تحت ذراعه نزولاً إلى جنبه، وقد غطت آثارها نصف مساحة ظهره. سألته مضطربة: «ماذا حدث لك؟».

لا يتطلب الأمر أن تكون طبيبة لتدرك أنه تعرض لحرق سيء جداً يوماً ما. بدا واضحاً أن هناك محاولة لجراحة تجميلية، لكن الأثر السيء المتبقي لا تخطئه العين. تفكيرها بالعذاب الذي سببه له هذا الحرق جعلها توشك على البكاء.

انطلق صوت خافيار حاداً كلذع السوط: «أخرج، فرانكو».

ولم ينتظر خروجه بل التفت إليها. بدت رائعة الجمال بغمامة من الشعر الأحمر الموشّى بالذهب تحيط بوجهها على الوسادة، كما بدت عيناها الخضراوان دافئتين مليئتين بالعطف على وجهه الوسيم. لكنه لم يكن يريد شفقتها، فهي متأخرة جداً: «ما الذي تتوقعينه من حادث سيارة؟ ندبة صغيرة أنيقة؟ أنت طبيبة ومن المؤكد أن بإمكانك أن تميزي تأثير حروق البنزين».

قال هذا ساخراً، فجلست في السرير ومدّت يدها بسرعة إلى ظهره وراحت تتحسس الجلد المغضن بأصابعها الرقيقة: «لم أعرف قط، أنا آسفة».

قالت هذا بهدوء. وفجأة، إذا بأشياء صغيرة تصبح مفهومة؛ رفضه السباحة معهم في البحر في بيت المزرعة. ثم تذكرت أن ضوء القمر كان يملأ الغرفة حين دخلت إلى النوم الليلة الماضية، ولا بد أن خافيار أسدل الستائر ليمنع أي ضوء قبل أن يلتحق بها إلى السرير. ثم البيجاما!

اخترقت نظراته عينيها: «بل تعرفين تماماً».

ونفض عنه يدها ونزل من السرير وهو ينظر إليها بعنف: «لديك وجه ملاك وتكذبين كالشيطان».

تملك روز الذعر والاضطراب لقوله هذا. ليست هذه المرة الأولى التي

ينعتها فيها بالكذابة. ولكن لماذا؟ هذا ما لم تكن تعرفه. حدقت إليه بصمت وقد اتسعت عيناها بعطف وحيرة. هل نشر خبر الحادث في الصحف فافترض أنها عرفت به؟

ـ لا أريد شفقتك ولا أحتاجها.

قال هذا بخشونة وهو ينظر إلى ملامح عينيها: «جسدك هو كل ما أريده. وكما لاحظت الليلة الماضية، الأمر ينطبق عليك أيضاً، فلا تزعجي نفسك بإنكار ذلك».

لم تصدق أن خافيار زوجها المتغطرس، يعاني من ضعف ما في شخصيته. لقد تعمّد أن يخفي جسده عنها. تذكرت حرصه على ألاّ تلمس يداها ظهره. ما الذي حدث؟ وهل بلغت القسوة بإحداهن حداً جعلها ترفضه بسبب آثار حروقه هذه؟ أتراها زوجته الراحلة؟ لم تعرف روز، لكن قلبها كاد يتمزق لأجله. شعرت برغبة بخنق تلك المرأة القاسية، عديمة الإحساس. وفي هذه اللحظة بالذات أدركت أنها تحبه... وربما أحبته دوماً!

اشتدت يداها على الملاءة. ستحبه من دون أمل إلى آخر حياتها.. وربما إلى الأبد. خنقتها المشاعر فابتلعت ريقها بصعوبة وأسدلت أهدابها لتخفي مشاعرها عنه: «لم أكن سأنكر ذلك».

فالتوت شفتاه بسخرية: «ربما لا ترغبين بأن تنظري إليّ، ولكن هذا غير مهم. تعرفين المثل القائل: (كل القطط رمادية اللون في الليل)».

تملكها الذعر لقوله هذا، فقفزت من السرير ووقفت على بعد قدم منه:

ـ قولك هذا فظيع. أنا....

وعضت شفتها بقوة والفزع يتملكها لأنها أوشكت أن تعترف له بحبها... فاستدارت على عقبيها وهربت إلى الحمام، بعد أن اغتسلت، شعرت بأنها أكثر سيطرة على مشاعرها. فتحت خزانتها وأخرجت ثوباً قطنياً أخضر، ارتدته في دقيقة، وسوّت تنورتها على وركيها.

سارت إلى صينية القهوة التي أحضرها فرانكو وسكبت لنفسها كوباً،

ثم سارت إلى النافذة وأبعدت الستائر. إنه يوم مشمس آخر!

كانت أفكارها مشغولة بكل شيء ما عدا النهار المشمس. رشفت القهوة ثم عبست اشمئزازاً وهي تشعر ببرودتها. لكنها كانت بحاجة إلى إنعاش الكافيين لها لتعيد تنظيم دماغها المرتبك. أنهت القهوة ثم استدارت. عليها أن تخرج من هذا المكان لكنها توقفت في منتصف الغرفة ورفعت رأسها بحدة عندما خرج خافيار من الحمام.

ابتلعت روز ريقها: «يكفي أنك غزوت غرفتي، ولكن بإمكانك على الأقل أن تستعمل حمام غرفتك».

قالت هذا بحدة وإذا بها تلاحظ الملابس التي كان يحملها. ونظر إليها مقطباً: «إنها غرفتنا معاً».

وألقى بالملابس على السرير المشعث.

ـ لحظة واحدة. لقد قلت من قبل إنها غرفتي.

بعد وقوفها تحت مياه الدوش، تمكنت من إجلاء تفكيرها. اعترفت لنفسها بأسى بأنه مهما بلغ حبها لخافيار فهو لن يجعل زواجهما أفضل. ذلك أن خافيار ما زال مراوغاً. مع أنه لا زال يتردد على صديقته تلك، لكن ذلك لم يمنعه من القدوم إلى سريرها هي. هذا إلى أنه منذ عشر سنوات، تزوج خطيبته، وهذا يثبت بأنه خدعها، وروز ليست غبية. إنها تحبه لكنّها لن ترضى بأن تكون ممسحة أرجل. فهي تتحلى بالكبرياء وتستحق أفضل من ذلك.

كان يتناول بنطلوناً ليلبسه عندما توقف قائلاً لها بتهكم: «هذه الغرفة الذهبية هي الغرفة الرئيسية هنا يا روزالين».

وسكت ليلقي بالمنشفة ليلبس البنطلون الكاكي اللون.

ـ ولكن عندما جئت إلى هنا في المرة الأولى، أخبرتني أنها غرفة الضيوف.

والتهبت عيناها غضباً، وهما تعكسان غليانها الداخلي.

ـ ليس الأمر كذلك روزالين. لقد سرّني فقط أن تنامي هنا منذ يوم

وصولك، لأنه كان في نيتي تماماً أن أتزوجك.

شعرت، لقوله هذا، بالبرودة تسري في كيانها. واشتبكت نظراتها المجفلة بنظراته.

ـ لقد أقسمت منذ عشر سنوات بأنني سأنتقم، وأنني، يوماً ما، سأستعيدك. لكنك اختفيت عن النظر. منذ الدقيقة التي رأيتك فيها تنزلين من سيارتك في منزل تيريزا، تقرّر مصيرك. وقد نجحت يا عزيزتي بشكل أسهل مما كنت أرجو.

ومنحها ابتسامة فاترة، فقد قال كلمته تلك بسخرية.

تركها اعترافه هذا خرساء لحظة طويلة. لقد تزوجها لأجل انتقام ملتوٍ... لم تستطع روز أن تصدق ذلك. إذا كان هناك سبب للانتقام فهي من عليها أن تنتقم وليس هو! أرادت أن تضرب ابتسامته الساخرة هذه. لكنها، بدلاً من ذلك جاهدت للسيطرة على نفسها فنجحت: «ولكن لماذا؟ هل سبق وآذيتك قط؟».

ـ آه أنت لم تؤذني؟ كما أتذكر، كانت آخر كلماتك لي منذ عشر سنوات: «أنا لست بحاجة إلى المفتاح ولا إليك. الوداع». ثم قطعت كلامي بوضع السماعة.

ـ وهل هذا هو الأمر؟ لأنني نبذتك؟

لقد قلب حياتها رأساً على عقب فقط لأنها خدشت كبرياءه، وذلك بإقفالها الهاتف وقطع كلامه. لقد اعتاد على نساء يتلهفن إلى كل كلمة منه، فلم يعجبه أن تهجره إحداهن، يا له من متغطرس! وقالت ساخطة: «أم ربما توقعت ثمناً أكبر للثوب؟ أنت حقير».

ربما يظن أن الوقت الذي أمضته معه لا يكفي ثمناً للثوب. أجاب وقد التهبت عيناه وتوترت ملامحه التي أصبحت قناعاً لغضبه المكبوت: «ربما. لكنك هنا وأنت زوجتي حسب الشرع والتقاليد. وعملياً، كل عروس من آل ڤالدزبينو تمضي ليلة الزفاف في هذا السرير».

كيف أمكنها أن تحب هذا الرجل؟ ظنت أنه ضعيف وأنه أصبح يهتم بها

وهو يحاول الكثير لكي يخفي عنها تشوّه جسده، بينما هو لا يهتم بها مثقال ذرة. وتملكتها المرارة، فبالرغم مما يبدر منه من إهانات واتهامات فهي لا تزال تراه وسيماً جذاباً. إنه جذاب إلى حد أن مليون ندبة لن تستطيع أن تمحو قوة رجولته.

نظرت إليه وهو يرتدي بنطلوناً كاكي اللون وقميصاً قطنياً أبيض، ثم حزاماً جلدياً.

ـ هل انتهيت؟

وانتبهت فجأة إلى أنها تحدق فيه.

ـ لا، لم أنته بعد. أما بالنسبة إليك وإلى تقاليدك الضيقة البالية، من المؤكد أنها لم تنفع زوجتك الأولى كثيراً، لأنك لم تنجب أولاداً أو بالأحرى، ليس أولاداً شرعيين.

لسعته بكلامها هذا قدر إمكانها وهي تتذكر خيانته. فذكرى صديقته زادت ألمها وغضبها.

بخطوتين واسعتين وصل إلى جانبها. حاولت أن تتراجع عدة خطوات وهي ترتجف إزاء عينيه الجليديتين اللتين تخترقان عينيها، لكنها رفضت أن تستسلم للخوف وهي ترى جسمه الضخم مشرفاً عليها.

ـ أنت لم تعرفي زوجتي الراحلة، ولن تتحدثي عنها مرة أخرى. هل فهمت؟

بدا وجهه الأسمر الخشن من دون تعبير، لكن صوته كان يحمل نبرة فولاذية واضحة. نعم، لقد بدأت تفهم؛ زوجته مقدسة لديه وهو يحبها، لكن ذلك لم يمنعه من أن يخونها، حين حاول إغواء روز منذ عشر سنوات. وفجأة، تفجرت من داخلها كل مشاعر الغضب والاستياء والألم التي كبتتها طوال تلك السنوات: «آه، نعم، فهمت تماماً. فأنت أيضاً لم تتحدث عنها، ولم تقل إن لديك خطيبة حين حاولت إغوائي منذ عشر سنوات. أنت لم تتغير مقدار ذرة. ما زلت ذلك المحتال الذي كنته دوماً».

قالت هذا بحدة وإذا به يمسك بكتفيها بيدين من فولاذ وهو يسمّرها

بعينين ثاقبتين أرسلتا الخوف في نفسها: «هنا أنت مخطئة، روزالين. فلم يعد يخدعني وجه جميل. ولم أكن قد تقدمت لخطبة أي امرأة حين قابلتك. هذا ادعاء منك اخترعته لتريحي ضميرك لأنك هربت مني».

ـ لا تستهن بذكائي، لقد رأيت الصورة على رف المدفأة، كما أن سبستيان...

ـ لا تذكري اسمه في حضوري...

فخرست إزاء صوته الثائر بينما انغرزت أصابعه في لحم ذراعيها: «أنا لا أريدك أن تطعني في سمعة صديقي لكي تريحي ضميرك المثقل».

فهتفت وهي تقبض يديها على جانبيها: «ضميري المثقل؟».

ـ لقد صبرت عليك فلم أطلب منك تفسيراً لتصرفاتك الماضية.

فالتهبت عيناها: «لديك جرأة عجيبة. أم لعل ذاكرتك من صنع يدك؟».

اشتد ما حول فمه بشكل غريب: «لا تخرجيني عن حدي يا روزالين. لقد كبحت طبعي، وكنت رجلاً مهذباً معك ولكن ليس بعد الآن».

ـ أنت رجل مهذب؟ لا تجعلني أضحك. أنت لم تفعل سوى الاحتيال والضغط عليّ ودفعي هنا وهناك منذ تعارفنا.

ـ كفى!

قال هذا وفي ملامحه احتقار عنيف جعل روز تحاول التراجع. وأذهلها أنه ابتعد عنها تاركاً كتفيها: «لا جدوى من الجدل حول الماضي، روزالين. أنت الآن زوجتي».

وبنظرة متزنة إلى وجهها الغاضب المتكبّر قال وقد تمكن من ضبط غضبه وإعادة السيطرة على نفسه: «منذ الآن عليك أن تتصرفي بلباقة مناسبة لمركزك هذا. لا شتائم ولا اتهامات، وأنا مستعد لإسدال ستار على الماضي وإعلان هدنة بيننا».

بدا كأنه يخاطب اجتماع مجلس إدارة... ففتحت فمها لتصيح به بعنف. لقد تقززت نفسها من اعتبار هذا الشيطان المتغطرس لها امرأة

ساذجة بليدة، لكنها عادت فسكتت وقد عضت شفتها.

وقف على بعد قدم منها: «أنا لن احقق معك عن عشاقك السابقين دومينيك والآخرين... وأنا أريدك أن تعامليني بالمثل».

والتوت شفتاه المغريتان بشكل ساخر لم يصلح ليكون ابتسامة.

كادت تشعر بالذنب لكلامه هذا، لكنها قاومت هذا الشعور، فهي لم تقل شيئاً تخجل منه. لقد كان دومينيك رجلاً لطيفاً حساساً وصديقاً حسناً. حاول إقامة علاقة معها لكن الأمر لم ينجح. لقد قال لها فيما بعد: «أنت امرأة رجل واحد، ولسوء حظي، أنا لست ذلك الرجل».

ولكن كيف تكهن خافيار بأمر دومينيك؟ إنها لم تتحدث عن الرجل سوى مرة واحدة.

كانت فطنته مذهلة. نظرة واحدة إلى ملامحه الأشبه بملامح الصقر، وإلى قوة مزاياه الفولاذية التي لم يستطع وجهه الوسيم أن يخفيها تماماً، جعلتها تقر بأنه أكثر فطنة ودهاء من أن تضيّع وقتها في تحديه. لماذا لا تستمتع بما هو مستعد لأن يمنحه لها من دون أن تطمع في المزيد؟ حقيقة أنها تحبه وهو لا يحبها لم تكن بتلك الأهمية، فقد بلغت التاسعة والعشرين، وهي كبيرة السن نوعاً ما لتحلم بقصص الحب والورود وما شابه...

ـ أفهم من سكوتك أنك موافقة.

قال هذا فجأة وهو يرفع حاجبيه ساخراً: «واجهي الأمر، روزالين. نحن الإثنان ناضجان بما فيه الكفاية لندرك عبث مثل هذه الاعترافات. لديكم مثل إنكليزي يقول: «هناك دوماً مياه تحت الجسر، هل أنت موافقة؟».

فقالت بهدوء: «موافقة، ولكن بشرط واحد».

ونظرت إلى عينيه من دون خوف: «أنا أطلب منك إخلاصاً كلّياً».

إنه لا يحبها، وقد يتعلّم ذلك مع مرور الزمن. ولكن هذا لن يتحقق إذا قبلت بأن تشاركه فيها صديقته تلك. إنها ليست حمقاء كلياً.

أدهشها طلبه هذا. تقدم نحوها خطوة وقال ببطء ولمعان الهزل في

عينيه: «طبعاً أعطيك كلمتي، يا عزيزتي. ولكن عليك أن تفهمي أنني لا أقبل منك بأقل من هذا».

ومد يده إليها فتراجعت خطوة: «انتظر. ألم تنس شيئاً؟ أم ينبغي أن أقول أحداً؟».

ورأته يقطب حاجبيه بحيرة، فقالت تذكّره ساخرة: «صديقتك التي ذكرتها لي بكل تلك الفصاحة عندما طلبتني للزواج».

فقال عابساً: «أنا في الأربعين تقريباً. وقد بقيت وحيداً عدة سنوات، وسأكون أحمق إذا ادعيت أنه لم تكن لدي صديقة في الماضي، ولكن ليس الآن. الليلة الماضية كانت المرة الأولى التي أقيم فيها علاقة جسدية مع امرأة منذ أكثر من ستة أشهر».

وقبل أن تتكهن بقصده، وضع يده حول رقبتها وعانقها عناقاً طويلاً عنيفاً. حاولت عبثاً أن تتحرر منه، لكنه أحاط خصرها بذراعه الأخرى وجذبها إليه، وعندما رفع رأسه كانت عيناها مليئتين بالغضب والألم. فقالت له بجرأة: «هذا لن يحقق المطلوب، خافيار. لا يمكنني أن أعيش مع كذاب».

فسألها غير مصدق، وقد توتر الجوّ بينهما: «هل تشيرين إليّ؟ لم يحدث قط أن تشكّك أحد في كلمتي. كيف يمكنك أن...».

فرفعت يدها: «كفى! أثناء عشاء الليلة الأولى في سيفيل، جاءك اتصال تليفوني، هل هذا يذكرك بشيء؟».

قالت هذا ساخرة، فلاحظت احمرار الشعور بالذنب في وجنتيه: «من أخبرك بذلك؟ ليس أبي».

ـ جيمي أخذ يمزح بهذا الشأن عندما صعد أبوك إلى غرفته لينام.

ـ أحقاً؟

قال هذا بصوت فاتر وهو يسير ليقف أمامها: «ولكن يبدو أنه لم يعطك القصة كاملة».

لم تكن روز ترغب بسماع المزيد. وحاولت جاهدة أن تخفي مشاعرها

المضطربة بالنظر إلى مكان ما من فوق كتفه وهو يتابع: «ليس من عادتي أن أفسّر تصرفاتي لأحد، وخصوصاً لامرأة».

رفعت بصرها إليه وقالت ببلادة: «أنا لست أي امرأة. أنا زوجتك».

نظر إلى وجهها المتوتر مفكراً: «نعم، الحق معك».

وأسبل أهدابه مخفياً أي أثر للمشاعر في عينيه: «عودي بذاكرتك إلى الوراء، يا روزالين. كان هناك مخابرة تليفونية عند العشاء، لكن أبي كان ثائر الغضب قبل ذلك. كان غاضباً لأن تلك السيدة اتصلت عدة مرات أثناء الأشهر القليلة الأخيرة، وكذلك عندما كنت في إنكلترا. وأبي يقول إن الصديقة يجب ألا تتصل مطلقاً ببيت صديقها، فمن العار أن يسمع صوتها هناك».

ـ يا إلهي، هذا قول قديم مهين.

هتفت روز بذلك باشمئزاز، فأجاب: «ربما، لكنه صحيح. تلقيت تلك المكالمة يومها، وقررت أن عليّ أن أنهي أمري معها على الفور. فقد أصبحت أنت لدي الآن».

غطرسته البالغة حبست أنفاسها: «ماذا فعلت؟ دفعت لها أجرها وصرفتها؟».

ـ شيء كهذا. يكفي أن أقول إن الأمر انتهى والسيدة التي نتحدث عنها كانت راضية تماماً.

ولوت فمه ابتسامة خطرة، ومد يده يمرّ بها على ذقنها قبل أن يحني رأسه ليعانقها عناقاً رقيقاً مثيراً للغاية.

يمكنها أن تصدقه أو لا تصدقه إذا شاءت. لكن لا شك أن وجوده يطغى عليها ويتحكم بحواسها.

قال بصوت أجش: «قرري أمرك يا روزالين لأن الظهر اقترب وأنا أموت من الجوع».

وفي نفس اللحظة صدرت غمغمة تذمر من معدته، فضحك بشيء من الخجل: «كنت متوتر الأعصاب أمس فلم أكد آكل شيئاً طوال النهار».

جعله اعترافه هذا يبدو بشراً أكثر من العادة... فبادلته الضحك:

ـ فلنأكل إذن.

ـ أتحسنين الطهي؟

سألها ذلك وهو يسبقها إلى الباب يفتحه لها.

ـ وماذا لو قلت لا؟ هل هو أساس للطلاق؟

سألته هذا وهي تنسل من جانبه ملقية برأسها إلى الخلف بشكل مثير، شاعرة بخلوّ البال لأول مرة منذ أسابيع. وفجأة أحاطت بخصرها ذراع ضخمة فأوقفها عن متابعة السير في الردهة: «لا، روزالين، لن يكون هناك طلاق...».

ظل ممسكاً بها وعيناه تتأملانها: «أبداً. أنا أريدك أم أولادي».

توقف قلبها عن الخفقان. أتراه تكهن بأنها تحبه؟ أخذت تتفحص ملامحه باحثة عن دليل مرئي يمنحها الجواب، وذلك بعينين واسعتين لا تطرفان، لكنها لم تر شيئاً.

ـ فكري في ذلك.

ومد يده يبعد خصلة شاردة من شعرها إلى خلف أذنها، وشفتاه تلتويان بابتسامة بطيئة: «أما بالنسبة إلى الطهو، فسأقوم به أنا، لأن فرانكو يذهب دوماً في الساعة الحادية عشرة إلى قداس الكنيسة يوم الأحد، ثم يأخذ عطلة لبقية النهار».

ـ آه الآن فهمت! أنت تتوقع مني أن أصبح مستعبدة عند الموقد.

قالت هذا مداعبة بينما اعترفت في سرها بأن هذا هو الخيار الأسهل. مهما كان مقدار حبها له، سيبقى بينهما دوماً حاجز. بعض المواضيع والأشخاص ممنوع التحدث عنهم.

* * *

١٠ ـ ليلة فوق الغمام

إفطار أم غداء! مهما كان نوع الوجبة فقد كانت مرحة بهيجة. ودهشت روز وهي ترى المطبخ فسيحاً عصرياً للغاية، لا ينسجم مع بقية أجواء المنزل، وكما في أول ليلة لهما معاً، كان خافيار طاهياً ممتازاً.

ـ الجامبون والبيض كانا لذيذين للغاية.

قالت هذا وهي تضع آخر لقمة في فمها فيما كانت تنظر عبر المائدة إلى خافيار. أما هو فكان يراقب تلذذها الواضح ببعض الرضى.

ـ إذن دعيني أدهشك مرة أخرى. إذهبي واحضري لك ثوب سباحة وسنذهب بعيداً لعدة أيام.

ـ بعيداً؟ إلى أين؟

ـ لدي ڤيلا في ماربيلا. إنها تبعد حوالى ساعتين بالسيارة. وفي الساحل الجو ألطف مما هو عليه هنا.

ـ ولكن لماذا؟ نحن وصلنا الليلة الماضية فقط. وفرانكو أخرج ملابسي لتوه من الحقيبة. وسيأخذ مني إعادتها إلى الحقيبة وقتاً طويلا.

لمعت عيناه البنيتان بالتسلية: «في الحقيقة يا روزالين، يمكن شراء أي شيء من ماربيلا. فهي عاصمة أوروبا، إلا إذا كنت تريدينني أن آتي معك إلى غرفتك لأساعدك، لكن لدي شعور بأن هذا ربما يؤخر ذهابنا وقتاً غير محدود».

وارتفع حاجبه ساخراً.

بدا رجلاً محنكاً ومهذباً للغاية، وتساءلت روز إن كان يعلم مقدار ما في

عرضه العفوي هذا من إغراء بالنسبة اليها.

ـ حان وقت القرار، يا روزالين.

صوته المداعب جعلها تقفز للعمل، ووقفت:

ـ امنحني عشر دقائق.

كانت الڤيلا مبنية على فسحة تقع فوق التلال المطلة على ماربيلا ولدهشة روز كانت الڤيلا حديثة تماماً، أما الطريق إليها فبدا متعرجاً تحف به الأشجار، أما الڤيلا نفسها فبدت وكأنها مبنية على جرف.

ـ هذا رائع.

قالت روز هذا وهي تخرج من السيارة وتنظر حولها، ولم يكن هناك حديقة حولها. أوقف خافيار السيارة أمام كاراج في نفس المبنى. وراحا يصعدان الدرجات الخشبية العريضة التي تؤدي إلى شرفة بعرض عشرة أمتار تحيط بالڤيلا.

ـ إنها خطرة لكنها ساحرة.

جاء خافيار ليقف بقربها حاملاً أمتعتهما القليلة بيد واحدة، فأجاب:

ـ الحياة نفسها خطرة. ونحن نأخذ منها مانستطيعه عندما نستطيعه.

وتبعته عبر الباب إلى الردهة المبلطة والمنعشة البرودة.

كان في الردهة بابان فتح خافيار أحدهما ليدلها على المطبخ، ثم توارى من الباب الثاني. تبعته مرة أخرى وهي تفكر بجفاء بأن هذه أصبحت عادة لديها. أخذت تنظر إلى كتفيه العريضتين وهو يجتاز الغرفة الفسيحة نحو باب في الجانب الأقصى منها.

وقفت ونظرت حولها وقد فتحت فمها مذهولة. إذ خلف الجدار الزجاجي كان هناك شرفة تطلّ على منظر لا يصدق. فتحت الباب الزجاجي وخرجت. أي عمل هندسي مجيد جعل ذلك ممكناً! لم تكن تعلم. رأت روز بركة سباحة مستطيلة، وعلى مسافة مترين منها حوض للماء الحار. سارت إلى نهاية الشرفة واتكأت بذراعيها على السياج. أخذت تنظر... كان المشهد الرائع يأسر البصر. بيوت ماربيلا البيضاء، حوض السفن الكبير، ثم البحر

الأزرق الصافي الممتد إلى الأفق البعيد. . .

ـ ربما ما كانت المدينة خياراً حسناً لقضاء شهر العسل.

قال خافيار هذا من خلفها، فاستدارت اليه: «لكنني لا أستطيع مغادرة البلاد حالياً بسبب صحة أبي المتدهورة».

ـ يمكنني تفهم ذلك.

واشتبكت نظراتهما. وفجأة بدا السياج خلفها هشاً للغاية، وسبحت ملامحه الكئيبة الساخرة أمام عينيها. بدا أشبه بصقر منتقم وبيته هو وكره، وبدت كأنها وقعت في الفخ. ودار رأسها. تقدمت نحوه خطوة فالتفت ذراعاه حولها.

سألها مقطباً: «ماذا حدث، روزالين؟».

هزّت رأسها لتبدّد تلك الصورة ثم أرغمت نفسها على الابتسام: «لا شيء، إنه الحرّ فقط، كما أظن. سأنزل للسباحة».

ـ فكرة جيدة. لدي عدة مكالمات سأقوم بها وأنضم إليك فيما بعد.

كان في المنزل غرفة نوم واحدة تفصلها عن غرفة الجلوس ردهة صغيرة، ولها جدار زجاجي يطل على المنظر نفسه. أسرعت روز تخلع عنها ثيابها وتلبس ثوب سباحة أسود، ثم جعلت من شعرها ضفيرة طويلة لتفتح بعد ذلك الباب الزجاجي وتعود إلى الشرفة. وكان خافيار قد خرج.

نزلت إلى البركة، فأنعشتها البرودة. مشكلتها، كما فكرت بحزن، هي أنها دوماً تشعر بحرارة بالغة أثناء وجود زوجها بقربها، وذلك بصرف النظر عن حرارة الجوّ. ولم تعلم روز ما عليها أن تفعل بهذا الخصوص. أخذت تسبح وتسبح وهي تحاول أن تفهم أفكارها المضطربة. كانت تعرف طبيعتها جيداً. إنها تلتزم تماماً بأي عمل تقوم به.

عندما كانت عارضة أزياء كانت الأفضل. وعندما أصبحت طبيبة عملت بجدية والتزام أيضاً. وفيما هي تستلقي على ظهرها في الماء، تذكرت نصيحة رئيسها في العمل لها بأن تذهب إلى وطنها وتستريح: (كان أبواك راشدين دوماً. كانا يستجيبان إلى أي نداء استغاثة لحالة طارئة في أي مكان في

العالم، لكنكم كنتم يومها أسرة. أنت امرأة ذكية رائعة الجمال وطبيبة جيدة وتهتمين دوماً بأولئك الذين هم أقل حظاً في العالم، لكنك وحيدة دوماً. لقد حان الوقت لأن تهتمي برغباتك الخاصة وتؤسسي لك أسرة).

أغمضت روز عينيها وقد نشرت ذراعيها على الماء، محركة أصابعها بين الحين والآخر لتبقى طافية. إنها متزوجة من الرجل الذي تحب وربما هي الآن حامل، فهل ثمة أهمية إذا كان خافيار قد تزوجها لهدف غبي هو الانتقام، لأنها المرأة الوحيدة التي هجرته؟ إن غرور الكبرياء في الرجل هش للغاية، لكن خافيار هو الأفضل. وفي الواقع، إن زواجها به هو الفرصة الوحيدة التي توفرت لها لإنشاء أسرة. لقد قال لها إن الطلاق ليس وارداً، فلماذا تخاف وترهق مشاعرها؟ شكواها هي عاطفية وليست عملية.

الواقع هو أنها متزوجة من رجل بالغ الثراء، ومرتاحة في بركة سباحة في فيلا مترفة. . .

ثم أخذت تغرق. . . أمسكت بخصرها يدان عريضتان وجذبتاها إلى تحت الماء. أخذت تجاهد بذراعيها وساقيها حتى طفت على سطح الماء.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

غمغمت بذلك باضطراب وهي تتشبث بكتفيه العريضتين بفزع لكي تمنع نفسها من الغرق مرة أخرى.

لم يجب خافيار بل أمسكت يداه بخصرها وجذبتاها إليه ثم أخذ يعانقها بقوة وسرعان ما استجابت روز لعناقه.

ـ كنت أراقبك طوال العشر دقائق الماضية.

صعد من البركة والماء ينساب عن جسده الأسمر ساحباً خلفه روز بيده. لم تجد روز وقتاً للتفكير. وعاد يأخذها بين ذراعيه بشغف ويداه تتحركان بقوة فوق جسدها.

بعد قليل، فتحت روز عينيها ببطء لتحدق في السماء الزرقاء الصاحية. كان خافيار مستلقياً بجانبها على بطنه. بدا أثر الحريق على ظهره لامعاً تحت أشعة الشمس، فمدّت يدها إليه وأخذت تمرّرها على اللحم

الخشن: «هل أنت بخير؟».

نظر إلى حيث أراحت يدها. ثم نظر إلى وجهها، وضحك من دون بهجة: «ألا يزعجك منظر الندبة؟».

ـ لا، فقد رأيت أسوأ منها بكثير. ولكن ماذا تفعل؟

حملها بين ذراعيه دون أن يجيب ودخل بها البيت. رفعت بصرها إليه فرأت على ملامحه مشاعر جعلته مختلفاً عن ذلك الرجل المتغطرس الذي كان.

ثم أدركت أنهما في غرفتهما. وضعها على السرير برفق وجلس إلى جانبها. راح يملس شعرها بيديه ثم أحضر منشفة ونشفه من الماء. شعرت روز بالسعادة لهذا الدلال والاهتمام اللذين لم تعهدهما فيه. وما هي إلا لحظات حتى غابا في بعضهما من جديد ليغرقا في بحر من المشاعر المحمومة.

* * *

فتحت روز عينيها فإذا الظلام يملأ المكان. جلست في السرير ونظرت إلى النافذة. كان المنزل من الارتفاع بحيث لم تر من سريرها سوى السماء، فكانت كمن يعيش في الغمام أو في أرض آلهة الأساطير.

ـ روزالين.

وتحرك بجانبها ثم انتصب جالساً: «أما زلت هنا؟».

وأمسك بذراعها. نظرت إليه مدهوشة لخشونة لهجته: «طبعاً، وكنت أفكر لتوي في مبلغ الهدوء والسلام هنا».

شعرت بقبضته على ذراعها ترتخي. وحركت أنفاسه عدة خصلات من شعرها: «أنا مسرور لأن المكان أعجبك».

وبعد وقت قصير كانا في السيارة متوجهين إلى المدينة. أوقف خافيار السيارة، ثم أمسك بيدها ينزلها منها: «سنسير فقط مسافة قصيرة إلى المطعم».

ووضع ذراعه حول كتفيها، ثم اخترق بها مجموعة من الناس. كان رأسها يدور. ماربيلا مدينة جميلة جداً مليئة بالسياح المنتشرين في كل مكان.

وعندما مرا بحوض السفن، اتسعت عينا روز ونظرت إليه: «يا إلهي،

يمكنك أن تدفع ديون بلدان العالم الثالث كلها من النقود التي تنفق على هذه اليخوت».

لمعت عيناه بالتسلية ومسح جبينه بيده: «تباً، فقد نسيت آراءك حول تقسيم الثروة. هذا آخر مكان كان عليّ أن أحضرك إليه».

ـ هنا معك حق. أشعر وكأنني ألبس أكثر مما ينبغي. لم أشاهد قط مثل هؤلاء الفتيات الرائعات في مكان واحد.

وتبعت عيناها شقراء طويلة الساقين تلبس تنورة قصيرة. وأعادت ضحكة خافيار انتباهها إليه فقالت: «هذا ليس مضحكاً فأنا لم أحضر معي سوى هذا الثوب».

ـ لا تقلقي ياعزيزتي. غداً سنذهب للتسوق. لكننا وصلنا.

أحاط خصرها بذراعه وقادها إلى المطعم.

كان الديكور أنيقاً غالي الثمن، كما لاحظت روز وهما يسيران إلى مائدتهما. وبنظرة واحدة أدركت أنهما محاطان بأناس أحسن لباساً وأكثر ثراءً. وعبست لثوبها الأخضر البسيط.

فقال خافيار وكأنه قرأ افكارها: «أنت أجمل امرأة في هذا المكان، فارتاحي. هل أطلب لك الطعام بنفسي؟».

ـ نعم، أرجوك.

وابتسمت له شاكرة لمجاملته هذه، وقررت أن تستمتع بما هو موجود. كان الطعام رائعاً. وعندما وصلا إلى مرحلة تناول القهوة كانت روز تشعر باسترخاء كامل. وإذا بامرأة جميلة متألقة، صغيرة الحجم، سوداء الشعر تقف عند مائدتهما. راحت المرأة تتحدث إلى خافيار بالإسبانية لمدة خمس دقائق.

كان قوام المرأة الجميل يرفل بثوب أحمر من الساتان الغالي الثمن، والماس يلمع في عنقها وأذنيها. لكن الابتسامة التي وجهتها إلى خافيار قبل أن تتركهما كسفت كل ذلك. وشعرت روز بطعنة مألوفة من الألم في قلبها. لا يمكنها المنافسة في عالم زوجها المتألق المحنك.

- بماذا تفكرين؟

فنظرت إليه مجفلة: «كنت أتساءل من تكون صديقتك هذه. أنت لم تعرفني بها».

- إيزابيل ليست صديقتي. كانت صديقة زوجتي الراحلة.

تفحصت روز وجهه الأسمر ساخرة. كان هذا قولاً غريباً. من المؤكد أن أي صديقة لزوجته هي صديقة له أيضاً.

- والآن أخبريني، روزالين. متى قررت أن تصبحي طبيبة وذهبت إلى كلية الطب؟

كان هذا تغييراً مفاجئاً للموضوع فأجابت من دون تفكير: «كان أبواي طبيبين فأردت أن أكون مثلهما. دخلت الجامعة بعد أن بلغت التاسعة... التاسعة عشرة... في أيلول...».

وترددت... فقد كان الماضي موضوعاً محظوراً...

لكن صوته جاء هادئاً، مرحاً، ومضاداً تماماً للغضب الذي رأته في عينيه: «إذن عندما تعارفنا لأول مرة كنت تعلمين أنك ستدخلين الجامعة في الخريف، ولم يكن في نيتك مواصلة العمل في عرض الأزياء».

- لا... أعني نعم!

وابتسمت وهي تشعر بالتوتر: «نعم، كنت أعلم أنني سأذهب إلى الجامعة. لقد أخذت سنة كإجازة لأعمل في عرض الأزياء. لكن ألم نتفق على عدم التحدث عن الماضي؟ ألم يكن هذا اقتراحك؟».

وقف خافيار ووضع بعض النقود على المائدة ثم أمسك بيدها يساعدها على النهوض: «الحق معك لكنني كنت فضولياً. إنسي ذلك ودعينا نخرج».

بعد أيام قليلة من الشمس والبحر واللهو، وقفت روز أمام المرآة ووضعت اللمسات النهائية على زينة وجهها. مسحة سريعة من الماسكارا وإذا بالمظهر الغامض الذي كانت تنشده قد تحقق. ارتدت ثوباً رائعاً، هو واحد من الأشياء الكثيرة التي أصرّ خافيار أن يشتريها لها أثناء الأيام الماضية، وأخذت تتأمل صورتها وهي تدور أمام المرآة: حمالة دقيقة كانت

ثبّت فتحة العنق، أما التنورة فكانت تصل إلى الأرض. انتعلت حذاء أسود عالي الكعب يكمل مظهر الثوب، لتقف أخيراً، مبتعدة عن المرآة، مسرورة تماماً من صورتها الأنيقة... ثم خرجت إلى الشرفة.

قال خافيار باسماً وهو يستند إلى السياج: «هل أنت جاهزة؟».

- نعم.

ونظرت إلى قامته الفارعة وقفز قلبها. بدا لها جذاباً إلى حد مدمر في بذلة العشاء الأنيقة.

قال وعيناه تقيّمان أناقتها: «تبدين مناسبة تماماً للأكل».

- إياك!

ومدّت يدها مدافعة وقد تكهنت بنيّته من عينيه المتألقتين: «لقد استغرق استعدادي للخروج دهراً فلا تفسد كل شيء».

فقال ضاحكاً: «ليس في ذهنك سوى شيء واحد، يا زوجتي. أنا فقط أريد أن أعطيك هذا».

ثم أخرج من جيبه علبة مخملية، فتحها وأخرج منها عقداً من الماس والزمرد هو أجمل ما رأته روز في حياته. ثم وقف خلفها ليضعه حول عنقها. وبحركة لا إرادية مدت يدها تلمس الأحجار الباردة ثم نظرت إليه بعد أن رأت صورتها في الباب الزجاجي. ولما كانت خصلات شعرها الطويلة مكوّمة على قمة رأسها فقد بدا العقد بكامل روعته: «هل هذا لي؟ إنه رائع الجمال، ولكن لا بد أنه كلّف كثيراً».

بدا على جانب فمه شبح ابتسامة: «أنت أيضاً رائعة الجمال، روزالين. وهذا هدية الزفاف، ولهذا أرجوك لا أريد أطروحة علمية عن الفقر العالمي. فالوقت لا يسمح لنا بذلك الآن».

أقيمت الحفلة في فيلا خاصة، يملكها أغنى أحد زبائن بنك «فالدزبينو». عندما شاع خبر وجود خافيار في المدينة انهالت عشرات الدعوات عليهما. لكن حفلة الليلة هي الوحيدة التي قبلها، وغداً سيعودان إلى المزرعة.

كانت الحفلة أنيقة، ضمت حوالى مئة مدعوّ وقد تضمنت عشاء فاخراً وحفلة راقصة. وسرعان ما أدركت روز أنها أصبحت مدار الحديث في الحفلة: زوجة خافيار فالدزبينو الجديدة. أخبرته بذلك عندما أخذها بين ذراعيه ودار بها في حلبة الرقص مشكلين زوجين رائعي التناسب.

التمعت عيناه في عينيها: «ليس ذلك لأنك زوجتي بل لأنك أجمل النساء الموجودات هنا وأكثرهن جاذبية. النساء يمتن من الحسد والرجال يتحرقون شوقاً للرقص معك».

قال هذا بسخرية جافة، ويده تتسلل على ظهرها ليحتضنها لحظة بعد صمت الموسيقى.

اقترب مضيف الحفلة منهما مع زوجته، وهو رجل في العقد السادس من عمره. بعد أن تحدث مع خافيار سألها بإنكليزية ثقيلة اللكنة: «هل لديك مانع يا روزالين؟ أريد أن أسرق زوجك لحظة. زوجتي ستبقى بصحبتك».

ابتسمت موافقة وهي تنظر إلى خافيار: «العمل قبل اللهو، هممم؟».

ـ ليس لوقت طويل، أؤكد لك.

أخذت تنظر إليه وهو يسير مبتعداً بشبح ابتسامة على شفتيه.

كان زواجهما يسير بشكل أفضل بكثير مما كانت ترجوه منذ أسبوع. وتنهدت راضية. خافيار البارد الانعزالي الذي أصر على الزواج منها، قد أصبح الآن رجلاً عطوفاً دافئاً، ومرحاً. ربما لم يحبها بعد، لكنها واثقة من أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يحبها.

حاولت المضيفة المسكينة أن تجري حديثاً معها، لكن أياً منهما لم تكن تفهم لغة الأخرى. وبعد لحظات تحول انتباه المضيفة إلى امرأة أخرى، فتنفست روز الصعداء، وانسلّت بهدوء بين الجموع.

ـ حسناً، لا بد أن هذه زوجة خافيار الجديدة.

استدارت روز بسرعة فاشتبكت عيناها بعينين بنيتين ترمقانها بنظرات قاسية. كانت تلك إيزابيل المرأة التي رأتها في المطعم. فقالت لها روز

بأدب: «مساء الخير».

ـ ليس خيراً لك... ألم يهجرك خافيار بعد؟ استعدي لذلك لأنه يفعل ذلك مع كل نسائه.

الحقد في عيني المرأة جعل روز تنكمش. وعندما تراجعت مبتعدة، اصطدمت بشخص كان يقف خلفها.

كانت شاكرة لهذا العذر، والتفتت إليه: «أنا آسفة جداً».

كان الرجل أقصر منها. لكنه جذاب وعيناه تلمعان بالضحك: «سأقبل اعتذارك إذا ما رقصت معي».

كانت على وشك أن ترفض عندما عرفته: «سبستيان؟».

ـ نعم.

ثم أحاطها بذراعه وقادها إلى الحلبة بين الراقصين: «يؤلمني، يا سيدتي الجميلة، أنني لم أتذكر اسمك».

لمعت عينا روز دعابة. إنه لم يعرفها: «أنا روزالين. الدكتورة روزالين ماي».

ـ آه، نعم. تذكرتك الآن. لا أدري كيف نسيت.

بعد أن قاما بدورة سريعة، اشتدت ذراعه حول خصرها. ثم سألها بنعومة: «والآن أخبريني يا روز ماذا كنت تفعلين منذ آخر لقاء بيننا؟».

يا له من كذاب... أرادت أن تنفجر بالضحك: «حسناً، دعني أفكر».

ومالت إلى الخلف قليلاً ويدها على ذراعه لكي تنظر إلى وجهه: «لقد تزوجت منذ أسبوع».

ـ لقد تحطم قلبي. كان يجب أن تنتظريني، ولكن دعيني على الأقل أهنىء العروس.

وقبل أن تدرك ما سيقوم به كان سبستيان قد ضمها إليه ليعانقها: «من هو الرجل المحظوظ لأقتله؟».

وأخذ يمثل دور العاشق المجروح كلياً وعيناه الوقحتان تلمعان

بالتسلية.

لم تستطع روز أن تمنع نفسها من الضحك: «سبستيان، أنت لم تتذكرني على الإطلاق. أنا مايلين، التقينا منذ عشر سنوات، والآن أنا السيدة...».

لم تتمكن من إنهاء جملتها قط، إذ سقطت يداه عن خصرها، وللحظة، رأت نظرة ذعر بالغ في عينيه، قبل أن يبتسم لشخص خلفها. وفجأة وجدت نفسها تُجذب بعنف إلى الخلف، إلى جسد صلب، فالتفتت لتقع عيناها على وجه خافيار الغاضب.

ـ إنها زوجتي الآن، سبستيان.

لم يكن ينظر إلى روز. كل انتباهه كان منصباً على الرجل الآخر.

ـ تهاني القلبية، يا صديقي القديم. أرجو أن تكونا سعيدين، وأنا آسف لأن حضور العرس فاتني.

ـ لم أظن أن الأمر يستحق أن تعود من بونيس إيرس قبل أن تكمل العمل. وفي الواقع، لم أتوقع منك أن تعود بهذه السرعة. كيف سارت الأمور؟

ثم تابعا الحديث بالإسبانية.

لا بد أن سبستيان ما زال يعمل عند خافيار، ويبدو أنهما صديقان حميمان، حيث أنهما تجاهلاها تماماً. رفعت روز يدها تغطي بها يد خافيار التي تمسك بخصرها. وكان هو يشدّ عليه من دون أن يلاحظ ذلك. تسللت أصابعها تحت يده، لكنه اعتصر يدها ثم رفعها إلى فمه يقبل أناملها: «قولي الوداع لسبستيان يا حبيبتي لأننا سنخرج».

رفعت بصرها إلى خافيار، ولاحظت الواجهة التي لا تُقهر... الإبتسامة الإجتماعية المهذبة التي لا تُفصح عن شيء. وعادت تنظر إلى سبستيان: «تصبح على خير. كان جميلاً أن نلتقي مرة أخرى».

وهذا ما شعرت به فعلاً، كما أدركت عندما قادها خافيار وهو لا يزال ممسكاً بيدها، بين الحشود إلى باب الخروج. لقد كان سبستيان شهماً معها عندما كانت بحاجة إلى ذلك. ولكن كما قال خافيار، الماضي ذهب بكل ما

فيه، وكل ذلك لم يكن سوى «ماء تحت الجسر». يمكنهم جميعاً أن يكونوا أصدقاء.

ظهر الخادم إلى جانب السيارة، فأخذ خافيار منه المفاتيح وأصعد روز إلى مقعدها ثم احتل هو مقعده وتحرك بالسيارة التي انطلقت بهما وكأنها مندفعة من جهنم.

تمتمت وهي تنظر إلى جانب وجهه الصواني: «لِمَ كل هذا الغضب؟».

ـ اخرسي.

قال هذا باختصار من دون أن يرفع عينيه عن الطريق. وكان هذا أفضل، كما أخذت روز تفكر. عندما دارت بهما السيارة بسرعة عند أحد المنعطفات شعرت روز بالخوف. فوضعت يدها على فخذه وهي تقول محاولة تهدئته: «ماذا حدث؟ هل نكث مضيفنا بالعهد بالنسبة لدفع أقساط الدين أم أن هناك شيئاً آخر؟».

نفض يدها عن فخذه ونظر إليها بعنف وقد تحجرت ملامحه: «هناك شيء آخر».

ـ آه.

أومأت وعيناها مسمّرتان على وجهه. بدا فمه متوتراً، أما جانب وجهه الشبيه بوجه الصقر فقد بدا متصلب الملامح. انعطفت السيارة بعنف مرة أخرى ما دفعها بقوة على باب السيارة. كفت عن القلق بشأن خافيار وقد قفز قلبها وهي تلمح المنحدر في جانب الطريق، فقد كان اهتمامها أكبر بالعودة إلى البيت سليمة. كانت رحلة مروّعة للغاية!

تصاعد صرير السيارة وهي تقف على بعد إنشات من باب الكاراج، فقفزت روز إلى خارجها: «كنت تقود إلى هنا كالمجنون. ماذا كنت تحاول أن تفعل؟ تقتلنا معاً؟».

صرخت به بعد أن شعرت بالارتياح لوقوفها أخيراً على أرض صلبة. ودار هو حول السيارة ليمسك بذراعها بقبضة حازمة يكاد يجرها على الدرجات نحو الباب جراً: «أدخلي إلى البيت قبل أن ألقيك من على

الشرفة».

قال هذا بشدة، ثم دفعها إلى الردهة ومن ثم إلى غرفة الجلوس. وبعد أن أشعل النور وأغلق الباب خلفه عاد يدخل خلفها.

نظرت روز إلى وجهه ثم تراجعت مبتعدة عنه: «ما هذا؟ وماذا حدث؟».

همست بذلك وهي ترى التهاب الغضب في عينيه.

ـ أتجرؤين على أن تسأليني هذا؟

قال هذا وهو يصر على أسنانه ثم يقترب منها. ابتعدت روز عنه والخوف في عينيها، لكنها كانت أبطأ مما يجب لأنه أمسك بكتفيها، ثم أمسك بشعرها وجذب رأسها إلى الخلف بشراسة: «نظرة واحدة منك إلى سبستيان، وإذا بك لا تستطيعين أن تمنعي نفسك. كنت بين ذراعيه تعانقينه».

فهزت رأسها: «لا، لا. أنت أسأت فهم الأمر، خافيار. لم يكن الأمر بهذا الشكل».

ـ لا تكذبي عليّ، تباً لك!

ورفع يده فارتجفت، وأغمضت عينيها بانتظار الضربة.

ـ يا إلهي، إلى أين تقودينني.

وببطء فتحت عينيها فرأت قبضته معلّقة في الهواء، وقد بدا عليه الفزع. وعندها رأت يده هذه هبطت إلى جنبه. لكن يده الأخرى بقيت تشدّ على لحم كتفها.

التوى فمه بابتسامة باردة وقد بدت عيناه كالصوان: «لا. لا أستطيع أن ألومك. في المرة الأولى التي تعارفنا فيها، اندفعت إلى سرير سبستيان ما إن تركتك. وكنت ستكررين الأمر نفسه الليلة لو أتيحت لك فرصة».

وصرف بأسنانه، ثم تركها فجأة بقوة جعلتها تترنح.

رفعت رأسها وحدقت لحظة من دون أن تتحرك، في عينيه المتهمتين الباردتين. لم تصدق أنه ما زال يتهمها أنها أقامت علاقة مع سبستيان! وأخيراً فهمت سبب تعليقاته الوضيعة عن أخلاقها، فتصلبت ملامحها

بغضب عاصف: «نعم قابلت سبستيان مرة من قبل، في شقته، عند الصباح بعد أن تعاهدنا أنا وأنت على الحب. تلك الشقة التي جعلتني أعتقد أنها بيتك».

فاندفع يقول: «لقد تركت لك المفتاح، هل نسيت؟».

فقالت بغضب: «وكيف أنسى؟ لقد أخبرني سبستيان أنك تحتفظ بمجموعة من المفاتيح لتعطيها لصديقاتك، لكن تلك المفاتيح لا تتلاءم مع أي قفل. كما أخبرني بأنك خطيب أخته، وأنك اعتدت أن تستعمل شقته لإقامة علاقات مع النساء، لأنك لا تريد أن تلطخ شرف خطيبتك البريئة. ويبدو هذا تقليداً مقبولاً في عالمكم».

هزّ رأسه ببطء نفياً: «لن أنخدع بهذه السهولة، منذ فترة أخبرتني أنك رأيت صورة لخطيبتي المزعومة، والآن تقولين إن سبستيان أخبرك بذلك. لكي تكوني كذابة جيدة يا روزالين، أنت بحاجة إلى ذاكرة جيدة. ويبدو أن ذاكرتك ضعيفة بشكل خطير. أما أنا فلا زلت أذكر أنك اعترفت بإقامة علاقة مع سبستيان حين أخبرتك بأنني سأتزوجك. هل هناك شيء آخر نسيته؟».

ذعرت لظنونه هذه، وعادت بذهنها إلى اليوم الذي عرض فيه عليها الزواج. حينذاك شعرت بالذهول لطلبه الزواج بها. تذكرت أن خافيار كان قد قال إنها ألقت بنفسها بين ذراعي سبستيان، ولكن لم يدر في خلدها قط بأنه كان يقصد أنها أقامت علاقة معه.

وقالت بعناد: «أنا لم أقم علاقة مع سبستيان على الإطلاق، وما كنت لأحلم قط بالقيام بعمل كهذا».

عليه أن يعلم أنها تخبره بالحقيقة: «يجب أن تصدقني».

لكن نظرة عينيه الصلبتين الساخرتين أنبأتها بأنه لم يصدقها. وتساءلت عما يجعلها تحاول أن تفسر له الأمر: «سبستيان وضع ذراعه حولي، ولكن على الأريكة في غرفة الجلوس».

سمعته يشخر غير مصدق فشعرت برغبة في ضربه لتضع شيئاً من العقل

في رأسه المتغطرس: «وذلك عندما أخذ يخفف عني، بعد أن شرح لي مبلغ حقارتك».

ـ وبعد ذلك اكتشفتما معاً أن لديكما مشاعر مشبوبة نحو بعضكما البعض.

وشعرت روز بغضب مفاجىء وسأم من كل شيء: «لا تكن سخيفاً! بالنسبة إليّ، أنت خدعتني وهجرتني».

قالت هذا بمرارة ثم استدارت متجهة إلى غرفة النوم، إلى أي مكان، بعيداً عنه، قبل أن تنفجر بالبكاء. المساء الذي ابتدأ حسناً، انتهى أسوأ مما كان يخطر لها ببال.

أمسك بمعصمها وأدارها نحوه: «سبستيان أخبرني بذلك، روزالين، وهو لا يكذب. كما أخبرني أنه اتصل بك إلى فندقك ليخبرك عن حادث السيارة فقلت له إن هذا الأمر لا يهمك».

والتوت شفتاه ازدراءً: «أين كانت الفتاة المحبة حينذاك؟ الفتاة التي أصبحت الآن طبيبة؟».

قالها متهكماً فاتسعت عيناها برعب: «هل وقع لك الحادث يوم رحيلي؟ لم أعلم قط بذلك؟».

ـ تعنين أنك لم تهتمي قط.

ـ لا، لا، أنت مخطىء. أنا لم أتحدث إلى سبستيان قط بعد أن تركت الشقة. لقد تركت الفندق إلى المطار بعد أن أقفلت السماعة في وجهك. وكنت في تلك الليلة نفسها في إنكلترا. بحق الله! فلا يمكن أن يكون سبستيان قد اتصل بي حتى ولو شاء ذلك. صدقني لم أعلم أن حادثاً وقع لك. مهما كان ما ظننته أو ما أخبرك به سبستيان فأنا لم أعلم.

قالت هذا بعنف بالغ ثم تذكرت الذعر الذي بدا على وجه سبستيان الليلة عندما اكتشف أخيراً من تكون. وفجأة تبلجت لها الحقيقة... كان سبستيان يحمي مصلحة أخته منذ عشر سنوات.

ـ لقد كذب عليك سبستيان، يا خافيار.

اشتد ضغطه على معصمها بقبضة حديدية: «وتتوقعين مني أن أصدقك؟ أنا أعرف سبستيان منذ سنوات طويلة، إنه صديق العمر، وما كان ليكذب عليّ قط».

فقالت: «بل فعل. سبستيان لم يتصل بي هاتفياً قط. وأنا لم أكن على علاقة معه قط».

جربت أن تقول هذا لآخر مرة، فابتسم ساخراً: «هذا قولك أنت...».

تهكمه هذا كان القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقال، واشتد ألمها لعدم ثقته بها كلياً، وهزّت كتفيها متعبة: «صدّق ما تشاء. مهما كان خلافنا حول ذلك، ستصدقه هو على كل حال. والآن، أترك معصمي من فضلك فأنا سأذهب إلى سريري».

ـ نعم.

وترك معصمها وهو يضحك دون مرح: «إنه أحسن مكان لامرأة مثلك. لا تقلقي روزالين. سواء صدقتك أم لا فهذا غير مهم، لأننا متزوجان. أنا مستعد تماماً لأن أنسى الماضي وأستمر في القيام بما بيننا على أحسن وجه».

ولكي يثبت قوله بالفعل أمسك بخصرها وجذبها إليه.

شهقت بصوت مختنق حين شدها إلى جسمه الصلب بعناق قاس، ولم يتركها إلا بعد أن استسلمت كلياً.

وحدها في غرفتها، خلعت روز ملابسها بعينين دامعتين. وفكت العقد الذي قدمه إليها منذ ساعات وهي تفكر بحزن في انتقالها في ليلة واحدة من النشوة إلى المأساة.

إذا لم تكن هناك ثقة متبادلة بينهما فلن يكون لعلاقتهما حظ الاستمرار على الإطلاق، لأن خافيار لن يصدقها هي أبداً بدلاً من صديقه. جعلها إدراكها ذاك تشعر بالغثيان. ما دام سبستيان قد كذب عليه، لا بد أنه كذب عليها أيضاً. لو أنها جربت المفتاح في باب الشقة في ذلك اليوم عندما اتصل

بها إلى الفندق. . . وسألته بصراحة عما إذا كان خاطباً حقاً، ولو أنها وثقت به. . . وانهمرت دموعها على خديها. . .

كان ذلك منذ عشر سنوات. لقد فات الأوان لكي يحبها خافيار كما كانت تحلم. إلى متى ستتمكن من احتمال زواج مبني على رغبة الجسد فقط؟ وصعدت إلى سريرها لتدفن وجهها في الوسادة تاركة دموعها تسيل. بكت كما لم تبك قط منذ افتراقها للمرة الأولى عن خافيار. وأخيراً، بعد أن جفت دموعها، دفعها الإرهاق إلى نوم عميق.

* * *

١١ ـ أريدك، فهل تصفحين؟

تقدمت روز، وعيناها مليئتان بالدموع، وأهالت قبضة من التراب على النعش. كان الدون بابلو ملجأها الوحيد أثناء الأسابيع الخمسة الأخيرة. لكنه مات الآن وهم يدفنونه.

بعد عودتهما من شهر عسلهما المزعوم، انتقلا إلى الجناح الرئيسي في منزل المزرعة وعاد خافيار يعاملها بنفس الطريقة التي كان يعاملها بها قبل أن يتزوجا، ممثلاً دور الزوج الحريص على إرضائها طوال النهار إذا أمكنه ذلك. ولكن في الليل فقط، في السرير الفسيح، كان تحكّمه الهائل في نفسه يتلاشى ويستسلم إلى الرغبات المشبوبة التي يثيرانها في بعضهما البعض. إلا أن ما بينهما لم يكن حباً. . . وأثناء الأسابيع الثلاثة الأخيرة، عندما احتلا غرفتين منفصلتين، لم يعد يحدث بينهما شيء على الإطلاق.

كانت تمضي معظم أوقاتها مع الدون بابلو، تعتني به، وبالمقابل راح هو يعلمها الإسبانية.

بعد أسبوعين من عودتهما إلى المزرعة، ذهب خافيار لعدة أيام إلى سيفيل تاركاً إياها مع أبيه. ساءت حالة الدون بابلو أثناء غيابه، فطلب الدكتور سرڤانتس منها أن تحقنه بالمورفين، وتستلم مسؤولية السيطرة على آلام المريض العجوز. وعندما عاد من سيفيل، اتخذ ذلك عذراً لكي يحتل غرفة منفصلة، قائلاً إنه لا يريد أن يقلق مقدار النوم القليل الذي تحصل عليه أثناء عنايتها بأبيه. أما روز فقد اعتقدت أنه عاد إلى صديقته، لكنها لم تسأله عن ذلك قط.

بدلاً من ذلك اعتادت على رفقة الدون بابلو وأحبته. فقد كان يبهجها بقصصه عن طفولة خافيار، وفي الليلة التي سبقت موته، جعلها تعده بألاّ تترك ابنه أبداً. وكأنه أحس بأن الأمور بينهما ليست على ما يرام.

ارتسمت على فمها ابتسامة حزينة وهي تمسح دموعها بيد مرتجفة. ستفتقد الرجل العجوز. لكنها شعرت بالرضى لعلمها أنه مات بسلام بعد أن أطلعته على سرّها.

ابتعدت عن القبر ثم جاءت لتقف بجانب خافيار. ولكن لم يكن هناك ذراع حامية من زوجها حول خصرها. لقد وقف جامداً مسيطراً على مشاعره. بدت عيناه ببرودة القطب الشمالي عندما رمقها بنظرة سريعة ثم عاد يتأمل إنزال النعش المغطى بالتراب إلى تحت الأرض. بعد ذلك استقل المشيعون سياراتهم عائدين من الكنيسة إلى المنزل.

بعد حوالى ساعة من موعد الدفن راحت روز تدور بين الضيوف. وأدهشها أن ترى كثرة أصدقاء الدون بابلو، وما له من تقدير واعتبار، بحيث حضر الجنازة معظم أعضاء الحكومة. نظرت حول الحشد فرأت كل شيء بغاية النظام.

أثارت انتباهها حركة إلى يسارها فالتفتت وإذا بها ترى زوجها خافيار واقفاً وهو يبدو كئيباً في بذلة سوداء بسيطة. ثم أحنى رأسه نحو إيزابيل التي كانت ترتدي ثوباً أسود قصيراً للغاية، يكشف عن ساقيها وعن القسم الأعلى من صدرها. وكانت تبكي وهي تتعلق بذراع خافيار.

ارتسمت ابتسامة مرة على شفتي روز. كانت تعتقد أن خافيار عاد إلى صديقته، ولكنها قد تكون مخطئة، فربما إيزابيل هي صديقته الجديدة. وفجأة رفع خافيار رأسه فرأى تحديقها بهما، فرفعت حاجبيها وشملته بنظراتها باحتقار لم تهتم بإخفائه. رأت فمه يتوتر بغضب بالغ. حسناً، ما الذي يتوقعه وهو يغازل صديقته أثناء جنازة أبيه؟ استدارت على عقبيها وسارت إلى خلف المنزل.

كانت بحاجة إلى التفكير والهدوء. فخرجت إلى الشرفة المطلة على

الحديقة المستطيلة التي تؤدي إلى البحيرة. جلست على المقعد الخشبي الذي كان المفضل عند الدون بابلو، ثم أخذت تتأمل المياه الزرقاء. تنهدت وأخذت تسوّي تنورتها القطنية السوداء إلى أسفل ركبتيها. مالت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها، ثم أخذت تدير رأسها حول كتفيها ببطء، علها تخفف من التوتر الذي تشعر به في أعلى عمودها الفقري. لقد مرت عليها أسابيع مجهدة عصيبة، وتأوهت. كان هذا الوصف تبخيساً لما عانته حقاً...

ـ هل تسمحين بأن أجلس معك؟

فتحت روز عينيها: «سبستيان؟».

إنها لا تريد أن تتحدث إلى هذا الرجل، لكن التهذيب أرغمها على القبول: «كما تشاء».

ابتسم بشيء من الحذر ثم جلس بجانبها، وفجأة، انتبه شيء في داخلها بحدة. إنها مرهقة وباتت تشعر بالنشوان لاضطرارها إلى اصطناع التهذيب على الدوام، والقيام بالدور المطلوب منها. فقفزت واقفة ثم التفتت إليه بغضب: «نعم، طبعاً لديّ مانع. عليك اللعنة! كيف تجرؤ على أن تخبر خافيار بكل تلك الأكاذيب عني؟ من أعطاك الحق بأن تتحكم في حياة الآخرين؟».

فأجفل: «إذن فقد أخبرك؟».

ـ وماذا تتوقع؟ إنه زوجي.

قالت هذا وهي تكبح غضبها. فقد كانت تريد أن تعلم بالضبط ما الذي فعله سبستيان أو لم يفعله منذ عشر سنوات: «قلت له في الواقع إنني أقمت علاقة معك. كيف جرؤت على ذلك؟».

ـ أعرف أعرف وأنا آسف. لكنك كنت غريبة عني. وأنا وخافيار كنا صديقين منذ الطفولة، بالإضافة إلى أنه رئيسي في العمل. لم أفكر قط في أنكما قد تتقابلان مرة أخرى.

كان بإمكانه على الأقل أن يظهر بعض الندم، كما فكرت روز وهي

تعود فتسأله: «ولكن لماذا؟».

فقال بجفاء: «ألا يمكنك أن تتكهني؟ أنت امرأة مذهلة الجمال. منذ اللحظة التي رأيتك فيها في الشقة، أدركت أنك مختلفة عن كل النساء اللواتي عرفهن خافيار، فمثّلت تهديداً خطيراً. وأنا كنت شغوفاً بأختي كاتيا، وكانت هي ترغب في خافيار منذ سنوات».

ـ لكنك قلت إنهما كانا خطيبين. وأخبرتني أنها كانت عذراء وأن ذلك كان تقليداً متبعاً. وأن خافيار يحترم براءتها.

وسرعان ما أدركت مبلغ غباء قولها هذا. فضحك بخشونة: «يا ليتهما كانا كذلك! فقد كانت كاتيا على علاقة مع خافيار قبل ذلك بسنوات، لكنه لم يعتبرها قط مسألة جدية. لم يكن الأول ولا الأخير. وذلك الأسبوع في برشلونة كانت ترجو أن تستعيده، وكان هو غير مرتبط حينذاك، وقد وعدها بمساعدتها، ولكن عندما دخلت أنت الغرفة وأريتني ذلك المفتاح، أدركت أن عليّ أن أتخلص منك، وهكذا أخبرتك كاذباً أن لديه مجموعة من المفاتيح يعطيها لصديقاته ليتخلص منهن، مغتنماً فرصة أنك كنت من الارتباك بحيث لا يمكنك أن تجربيه. ونجحت في ذلك».

هزت رأسها باشمئزاز: «وماذا عن الحادث الذي حصل لخافيار؟».

ـ حدث له الحادث وهو في طريقه إلى فندقك، وكنت أنا في السيارة معه محاولاً أن أقنعه بألاّ يزعج نفسه بك. أخبرته بأنك تركت المفتاح قائلة ببساطة: (شكراً ووداعاً) لكنه لم يصدقني، ثم لم يعد الأمر مهماً لأن سائقاً سكيراً اصطدم به. من المضحك أن سيارة خافيار لم تكد تتأثر، لكنه أصيب بحروق وهو يخرج الرجل الآخر من سيارته.

فهمست روز: «يا إلهي! وعندما استيقظ أخبرته أنت بأنني عرفت بحادث الاصطدام لكنني لم أرغب في أن أراه».

ـ نعم، لأن آخر شيء قاله لي خافيار قبل أن يفقد وعيه هو أن أتصل بك في الفندق.

ـ وهل فعلت ذلك؟

ـ نعم، وأخبروني بأنك تركت الفندق نهائياً.

صدرت حركة خفيفة عن الأجمة جعلت سبستيان يلتفت: «ما هذا؟».

فقالت روز بفروغ صبر: «لا شيء. ماذا فعلت بعد ذلك؟».

ـ أخبرت خافيار بأنك لم تهتمي بالأمر. بينما كنت أنت قد صدقت قصتي ورحلت. بقي خافيار أسابيع في المستشفى، وبقيت كاتيا بجانبه تمثل دور الحبيبة المخلصة. وبعد ثلاثة أشهر فقط اتصلت بي وأردت أن تتكلمي معه فتملكني الذعر. كان قد شفي تماماً وأخذ يتحدث عن الاتصال بك ومواجهتك، فأخبرته بأنه يضيّع وقته سدى، وأنك لا تستحقين جهده ذاك. ولكي أقنعه نهائياً أخبرته، على كره مني، بأنك أقمت علاقة معي في شقتي ذلك الصباح بعد خروجه.

نظرت روز إليه بذعر، فعمق خداعه هذا أفزعها.

أمسك سبستيان بذراعها: «عليك أن تفهمي أنه كان عليّ أن أفعل هذا لأحمي أختي، فقد كان خافيار آخر فرصة لكاتيا. لأن أقاويل الناس بدأت تتناولها».

ـ إذن عندما اتصلت بك وأخبرتني أن خافيار سيتزوج في الأسبوع التالي، كان ذلك كذباً أيضاً.

ـ نعم، ولكن بعد أن أخبرته أنني أقمت علاقة معك، بدا وكأنه لم يعد يهتم بشيء. وبعد ذلك بشهرين تزوج كاتيا على كل حال.

أغمضت عينيها لحظة... وكل تلك الأكاذيب... وكل تلك المعاناة... لماذا كل هذا؟ وعادت تنظر إلى وجه سبستيان المضطرب، ثم سألته بمرارة: «لماذا تخبرني الآن بعد مرور عشر سنوات، وبعد فوات الأوان؟ لا أصدق أن ضميرك يزعجك، فمن الواضح أنه ليس لديك ضمير».

ـ أريد أن أعلم جواب هذا بنفسي.

استدارت روز بمجفلة ورفعت بصرها إلى وجه خافيار العاصف، وهتفت: «خافيار، ماذا تفعل هنا؟».

نظر إليها بغضب: «عودي إلى البيت واهتمي بضيوفنا، وأنا سأهتم بهذا».

أوشكت أن ترفض، وأخذت تنقل بصرها بين الرجلين. بدا التمرد في وجه سبستيان، كما بدا الإجرام في وجه خافيار.

كانا كوعلين يدافعان، كل عن نفسه، أو خنزيرين يتناحران، كما أخذت تفكر ساخرة، وهما اللذان كادا، في ما بينهما، أن يدمرا حياتها.

وتملكها الاشمئزاز مما سمعت. وبصلابة لم تكن تعلم أنها تملكها، قررت أن تدعهما ليدمّر كل منهما الآخر. لَمَ عليها أن تهتم بذلك؟ وبهزة من كتفيها، تركتهما وعادت إلى البيت.

كانت مضطرة للتحلي بالقوة للاختلاط بالضيوف وتقبل التعازي من أصدقاء الدون بابلو الكثيرين.

وأوقفها الدكتور سرڤانتس: «روزالين، عزيزتي. أنا خارج الآن، لكنني لا أستطيع الخروج قبل أن أعبّر عن شكري لك مرة أخرى. كان الدون بابلو رجلاً محظوظاً للغاية لعنايتك به. وكان يعلم هذا. ومع أن هذا اليوم حزين، فسوف يسعد به. رحمه الله لأنك جعلته فخوراً».

ابتسمت روز للرجل العجوز الذي بدت حالته سيئة بسبب حزنه على صديقه القديم، لكن عواطفه كانت صادقة.

وتمنت له ليلة سعيدة. وفي الساعة التالية كان معظم الضيوف قد غادروا. ورأت روز رأس خافيار فوق الرؤوس. بدا طويلاً متحفظاً، لكنه تجنب نظراتها. كان قناع من الشرود الكئيب يكسو ملامحه. وربما ظن أكثر الموجودين أنه حزن على والده. لكن روز لم تكن تعتقد ذلك. كان غضبها قد هدأ نوعاً ما. وكلما ازداد تفكيرها في اعترافات سبستيان، ازداد الأمل في قلبها. إذا تناقشا، هي وخافيار، بصدق وصراحة ربما يمكنهما إنقاذ زواجهما. ثم رأت زوجها وهو يتمنى لإيزابيل ليلة سعيدة، فأخذت تعنف نفسها لحماقتها. لا شيء تغير... رأته يودع المرأة بلطف جم ثم يقف وينظر حوله.

شعرت بألم هادىء في قلبها واشتبكت عيناه بعينيها، ثم تقدم إليها وأمسك بمرفقها: «روزالين. حان الوقت لتوديع ضيوفنا».

نفضت يده عن ذراعها وقالت متهكمة: «أتعني الآن بعد أن خرجت صديقتك إيزابيل؟».

ضاقت عيناه على وجهها الغاضب: «إنها ليست صديقتي ولن تكون كذلك أبداً. وقد أخبرتك بذلك من قبل. والآن هل لك أن تتأبطي ذراعي وتتصرفي كزوجة احتراماً لذكرى والدي؟».

لم تستطع روز أن ترفض، فوقفت وسط القاعة الفسيحة، شاعرة إلى أقصى حد بجسمه الممتلىء بالحيوية والرجولة إلى جانبها، ولمسته الخفيفة على ذراعها.

ما إن ودعا آخر الضيوف، حتى تركت ذراعه واستدارت تواجهه بالسؤال الذي لم يبارح ذهنها منذ ساعتين: «ماذا حدث لسبستيان؟».

حدق إليها بجمود: «لقد رحل ولم يعد مصدر أهمية لك».

ـ فهمت، وهل هذا كل ما ستقوله؟

بدا مسيطراً على نفسه ببرودة، لكنها ما لبثت أن رأت يديه تنقبضان إلى جانبيه. بدت سلاميات أصابع إحدى يديه بيضاء من شدة التوتر فيما بدت قبضة يده الأخرى حمراء مسلوخة. فهتفت: «هل ضربته؟».

ـ لا، لقد كشطت جلد يدي في الجدار.

وأضاف من دون أن ينظر إليها: «والآن، إذا سمحت، كان يوماً شاقاً وما زال هناك أشياء عليّ القيام بها».

وكاد يصطدم بها لسرعته في الابتعاد عنها. وأخذت تنظر إلى قفا رأسه ذي الشعر الأسود وكتفيه العريضتين فيما هو يدخل مكتبه ويصفق الباب خلفه، تاركاً إياها وحدها. إنه يعلم الحقيقة الآن. يعلم أن سبستيان قد كذب عليهما معاً، ومع ذلك ما زال مبتعداً عنها... إنه لا يهتم بها... ولم يهتم بها قط...

فكرت بمرارة في أن عليها أن تواجه الحقيقة، وهي أن خافيار لا

يريدها، فقد بردت مشاعره نحوها. لم يلمسها منذ ثلاثة أسابيع. كان يغيب طوال النهار ليأتي في الليل فيجلس مع أبيه قليلاً، ثم يخرج عندما تدخل روز إلى غرفة المريض. عاودتها ذكرى العطف الذي كان يبديه لإيزابيل. ما الفرق إن كان يمضي أوقاته مع صديقته القديمة أم مع إيزابيل؟ لقد تعهد لها بأن يبقى مخلصاً لكنه أخلف عهده.

أخذت تغالب دموعها وهي تنظر في أنحاء الردهة التي أصبحت خالية. وفكرت بحزن في أن عهداً من حياتها قد انتهى... لقد رحل الدون بابلو، وقد ترحل روزالين فالدزبينو أيضاً. وتمنت لو تعود إلى شخصيتها الأولى الدكتورة ماي وتنسى أن الأشهر الأخيرة قد حدثت قط.

لكن الحياة ليست بهذه السهولة. وتذكرت وعدها للدون بابلو وهو على سرير الموت، هل إخلاف خافيار بوعده لها، يبرر إخلافها بوعدها لأبيه؟

دخلت إلى المطبخ والغم في أعماقها. كان ماكس على وشك المغادرة بعد انتهاء عمله. حاول أن يبتسم لها وهي تحييه تحية المساء، لكن وجهه كان مغلفاً بالحزن.

جلست على كرسي صلب الظهر واتكأت بذراعيها على المائدة محنية الرأس. كانت متعبة للغاية ومستنزفة عاطفياً، ما جعلها تشك في قدرتها على الصعود إلى سريرها، كما أن ليس لديها القوة على تحدي زوجها. ولم تكن لديها فكرة كم أمضت في جلستها هذه. وأخيراً، تنهدت طويلاً، ومسحت دموعها ثم عادت إلى الردهة، و.. هالتها الصرخة التي سمعتها!

كانت أشبه بصرخة حيوان يتألم، تبعها صوت يشبه تحطم الزجاج. كان هذا الصوت آتياً من المكتب. ومن دون تفكير اندفعت إلى المكتب وفتحت بابه.

كان خافيار منهاوياً على الأريكة الجلدية السوداء ورأسه بين يديه وكتفاه تهتزان. كانت سترته وربطة عنقه مرميّتين على الأرض إلى جانب بقايا كأس محطمة.

ـ خافيار!

لقد تصدع أخيراً تحكّمه بنفسه. اندفعت روز لتجلس بجانبه على الأريكة ووضعت ذراعها حول كتفيه مؤاسية.

ألقى برأسه إلى الخلف، وأدار إليها عينين دامعتين: «أنت ما زلت هنا، روزالين؟ أما لعذابي هذا من نهاية؟».

وتأوه وهو يتخلل شعره بأصابعه.

ـ اهدأ... أعلم ما تشعر به... لا بأس في أن تحزن. أبوك كان رجلاً رائعاً.

تمتمت بذلك تخفف عنه، وقد امتلأ قلبها عطفاً على هذا الرجل المتغطرس في ضعفه غير العادي هذا، والذي هدّه موت أبيه.

مدّ يده يزيح خصلة من شعرها عن جبينها: «عطفك يضعفني. يفقدني شعوري برجولتي».

قال هذا بصوت خشن وهو يرفع ذقنها بإصبعه وينظر إلى وجهها: «ولا أستطيع أن أكذب عليك. ليس موت أبي ما يعذبني، بل أنت. كيف يمكنك أن تنظري إلي بعد الطريقة التي تصرفت بها معك. لا بد أنك تكرهينني».

ـ أنا طبيبة وعملي هو الاهتمام بالناس...

حاولت أن تقول هذا بمرح لكن صوتها اهتز وكأن المشاعر خنقتها:

ـ ولا يمكنني أن أكرهك أبداً.

وكان هذا أقصى ما جرؤت على كشفه من مشاعرها. نظرت إليه وهو يعود ليتنفس مرة أخرى. نظرت إلى عينيه الداكنتين وهما تحومان على وجهها وعلى شعرها وعلى جسمها الرشيق ثم تعودان إلى وجهها.

نظر إليها طويلاً، والتوتر ينمو في الجوّ بينهما، ويده تشتد على ذقنها بدون وعي منه. ثم سألها بصوت أجش: «ولكن، هل يمكنك أن تتعلمي كيف تحبينني يوماً ما؟».

ما لاحظته في عينيه من خوف ووحدة جعلها تبدو كالمصعوقة. إنها نفس المشاعر التي تمتلكها، لذا لم تتمكن من الكلام.

وإذا به يقفز واقفاً ثم يستدير ليحدق فيها: «لا، أنت طبعاً لا

تستطيعين. فقد فقدت الحق في طلب ذلك بعد أن صدّقت أكاذيب سبستيان، وعندما ابتززتك للزواج مني. يا إلهي! يجبرني أنك ما زلت هنا. كنت مقتنعاً بأنك سترحلين حالما تنتهي الجنازة ويخرج آخر ضيف. حبست نفسي هنا لكي لا أراك وأنت ترحلين. لم أستطع أن أحصل حتى على هذا، فقذفت بكأس أرضاً».

نهضت روز واقفة ببطء، ووضعت يدها على ذراعه: «أتريدني أن أرحل؟».

سألته ذلك لأنها تريد أن تكوّن فكرة واضحة، فيما راحت أصابعها تلامس، بدون وعي منها، ساعده العاري ونظرت إلى عنقه وهو يتشنج حين ابتلع ريقه: «لا، لا، تباً لذلك. فأنا أحبك. لقد أحببتك دوماً».

أخيراً، سمعت روز الكلمات التي طالما اشتاقت إلى سماعها فتوهج الأمل في قلبها، بينما تابع خافيار: «مرت عشر سنوات طويلة موحشة، تخللها زواج زائف من امرأة لم أكن أحبها وما كان لي أن أتزوجها. والآن بعد أن وجدتك، كان الوقت قد فات... أنا أحبك إلى درجة أنني لا أريدك أن تبقي بالرغم عنك».

فتوترت روز: «ومن ستضع في مكاني؟ إيزابيل أم صديقتك الأخرى؟».

كان عليها أن تسأل، فقد تمزقت تماماً أثناء الأسابيع الماضية وهي تتصوره بين ذراعي امرأة أخرى.

أسرت عيناه عينيها بعنف: «أبداً، ما من امرأة على هذه الأرض يمكنها أن تأخذ مكانك يا روزالين، يجب أن تعلمي هذا. يجب أن تشعري به وأنا معك، ضائع فيك، أشبعك حباً».

- ولكن ماذا بالنسبة للأسابيع القليلة الماضية التي...

فقاطعها: «لقد عانيت من عذاب الحريق لأجلك، والشوق إليك من دون أن أجرؤ على لمسك. كان أبي متعلقاً بك. لقد أخبرني بذلك في الليلة التي سبقت رحيلي إلى سيفيل. كان سعيداً للغاية لأجلي لأنني وجدت أخيراً

المرأة الكاملة. لقد تمكن من معرفتك على حقيقتك في ذلك الوقت القصير، وأدرك شخصيتك الخيّرة الطيبة وحنانك وصدقك وكان يعتبرك قديسة تقريباً. استطاع رجل على فراش الموت أن يرى فيك ما رفضت أنا أن أراه. بعد عرسنا شعرت بأنني أحط من الانحطاط نفسه وأنني لا أستحق أن أكون التراب الذي تحت قدميك لأنني أدركت أنه كان على حق. لم أكن بحاجة إلى سماع اعترافات سبستيان بأكاذيبه. فقد سبق وأدركت أن الأشياء التي اتهمتك أنا بها لا يمكن أن تكون صحيحة بأية حال. وشعرت بحب مدمّر لك وانتابني شعور فظيع بالذنب. هربت إلى سيفيل لعدة أيام لأنني لم أستطع أن أواجه ما فعلته بك».

فهمست: «خافيار».

- لا، دعيني أنهي كلامي. عندما عدت وأخذت أراقب تصرفاتك مع أبي، حديثك معه، تخفيفك عنه، اهتمامك به، ملأني شعور بالاشمئزاز من نفسي بحيث لم أجرؤ على أن ألمسك أو أخبرك كم أحبك. لم أكن أستحقك، لكنني كنت في غاية الرعب من أن تهربي مرة أخرى.

مع أنه لم ينظر في عينيها، لكنه قال إنه يحبها. وهي لن تدعه يستمر في تمثيل دور الرجل النبيل: «أنت لن تراني هاربة إلا إلى غرفة النوم».

ألقى برأسه إلى الخلف ولمعت عيناه الكئيبتان بضوء ذهبي واشتبكتا بعينيها: «روزالين، إنني أضع قلبي هنا، فلا تمزحي. لا يمكنني احتمال ذلك».

والتوت شفتاه بشبح ابتسامة، فوضعت ذراعها حول عنقه واتكأت على جسمه الدافىء الصلب ثم ألقت برأسها إلى الخلف، وقد لمعت عيناها بنظرة قديمة من عهد حواء: «أنا لا أمزح، فأنا أحبك».

طوقتها ذراعاه كعصابتين من فولاذ: «لا أصدق هذا، لكنني لن أدعك تغيرين رأيك. أنا أتلهف إليك، روزالين. أنا بحاجة إلى لمساتك المعزية هذه الليلة. أريد أن أفقد نفسي بين ذراعيك. ولن أهتم إذا كان كل هذا مجرد حلم».

قال هذا بصوت ممزق وعانقها عناقاً عنيفاً حمّله كل مشاعره المحمومة. ثم حملها بين ذراعيه وذهب بها إلى غرفة النوم. وأحاطت عنقه بذراعيها بحب بالغ، وصدّقها هذه المرة عندما قالت إنها تحبه. بعد كل الحزن وألم الفراق طوال النهار، جاء اتحادهما إثباتاً للحب واستمرار الحياة.

ـ ماذا حدث لسبستيان؟

سألته روز بعد وقت طويل وهي مسترخية بين ذراعيه، وقد رفعت يده الجريحة إلى فمها تمسحها بقبلاتها. فأجاب ساخراً: «أظنك تعلمين. رأيتك تخرجين من البيت ورأيت سبستيان يلحق بك. فتبعته وسمعت كل ما قاله لك. كنت على الشرفة منذ البداية، وأردت أن أقتله. لقد كذب علينا نحن الاثنين. كلما فكرت في السنوات التي ضاعت منا سدى...».

وشدد ذراعيه حولها ودعك ذقنه بقمة رأسها: «لكنني منعت نفسي من توجيه أكثر من لكمة واحدة إليه. ونحن لن نراه أبداً مرة أخرى».

فتمتمت: «إنه صديقك. وكان يرعى مصلحة أخته».

فقال بلهجة حاسمة: «كان صديقي. لكن ثمة أشياء في الحياة لا يمكن غفرانها».

وأدارها خافيار إليه وأمسك بذقنها وعلى فمه ابتسامة جافة: «ومع ذلك فأنا لم أطلب منك الصفح بعد لسلوكي الحقير معك».

ثم قطب لفكرة خطرت له: «وفي الواقع، كان الأمر كله ذنبي أنا، كان يجب أن أبحث عنك».

ـ لكنك أصبت بحادث فظيع كما أنك، حسب قول سبستيان، كنت ما زلت تريد الذهاب للبحث عني. وهذا يكفيني، وخطيئتك مغفورة. وعلى كل حال، كان ذلك ذنبي كما هو ذنبك. أنا أيضاً ما كان لي أن أصدق كذبه».

ـ كنت فقط في التاسعة عشرة، أما أنا فأكبرك بسنوات. كان يفترض بي أن أفكر بشكل أفضل.

قال هذا وابتسامة ندم تحل مكان التقطيب: «أمر واحد فقط ما زال

يحيرني. ما الذي جعلك تتصلين بسبستيان بعد ثلاثة أشهر من تركك لي؟».

وكانت تخاف من هذا السؤال، لكنها لم تستطع تجنبه. وبان الألم في عينيها: «لقد اكتشفت أنني تعذبت كثيراً من فراقك بعد أن عدت إلى إنكلترا. وضعفت صحتي وكدت أصاب بالانهيار. ففكرت بأن أتصل بك. وعندما مرّت الأسابيع بدأ الاكتئاب يتملكني. وأخيراً اتصلت بالرقم الذي أعطيته لي وتكلمت مع سبستيان. أخبرته فقط أنني أود أن أتحدث إليك. على كل حال عاد فاتصل بي قائلاً إنك لم تشأ أن تتحدث معي، وإنك ستتزوج بعد أسبوع».

وسكتت ونظرت إلى خافيار وقد جمد وجهه: «استمري».

وتلعثمت... ما زال من الصعب عليها الحديث عن ذلك: «أثر الحزن على صحتي ونفسيتي معاً فأصبت بانهيار عصبي.. ربما بسبب الضغط النفسي..».

فصرخ: «يا إلهي. لو كنت أعلم بذلك لقتلت ذلك النذل. لقد تلاعب بنا نحن الاثنين فسبب لنا الألم والمعاناة».

رفعت يديها تحيط بهما وجهه: «لابأس، كان ذلك منذ وقت طويل وقد انتهى الآن».

ـ لا، لم ينته.

نزف قلبها للعذاب الذي بدا في وجهه: «أنت لا تعلمين أنني تزوجت منذ ثماني سنوات ونادراً ما استطعت أن أقترب من زوجتي، لهذا السبب لم تحبل كاتيا قط. ولم أتمكن قط من القيام بذلك من أجل الإنجاب فقط. وها أنا أكتشف أن المرأة التي يمكنني أن ألتصق بها ليل نهار قد تم إبعادها عني بسبب خيانة من صديقي. الجدل الوحيد الذي كان يدور بيني وبين أبي هو حول فشلي في إنجاب وريث..».

ـ حسناً، إذا كان أبوك ينظر إلينا من أعلى الآن، فلا شك أن ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه الحبيب المغضن. ربما كان علي أن أخبرك أولاً، لكنني أخبرت أباك في الليلة التي سبقت وفاته، بأنني حامل. وقد جعله

ذلك سعيداً جداً.

ـ أنت حامل بطفلي؟

كان صوته عميقاً خشناً، ونظراته المذهولة تكتسح جسدها، وأخذ يمرّ بيده على وجهها وعيناه تلمعان حباً: «هل أنت واثقة؟ متى...».

فقالت ضاحكة: «أنا طبيبة، ويبدو أن تقاليد آل فالدزبينو عن سرير الخصوبة ما زال فعالاً».

ـ منذ الليلة الأولى؟

وابتسم راضياً.

ها قد استعادت روز زوجها الوسيم المتغطرس. مدّت يديها تتخلل شعره، مسرورة لأنها أبعدت عن ذهنه فكرة فشله في الإنجاب. وجذبت رأسه نحو صدرها: «هل تريدنا أن نمثل دور الطبيب والممرضة؟».

فقال هازلاً: «وأقوم أنا بدور الممرضة؟».

ـ هناك ممرضون من الرجال خافيار. هل أرى تعصبك لأبناء جنسك ينتعش مرة أخرى؟

ـ ليس هذا فقط.

وضحك بصوت أجش وهو يتبع قوله بعناق طويل مليء بالحنان. ومشاعر الندم، والصفح تنضح منهما معاً. وتتراقص حولهما وعود مشبوبة بمستقبل هانيء سعيد.

* * *